

الفصل الثالث

- ١ - حقوقه
٢ - واجباته

القيادة

ونعنى بالقيادة كل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين العامة فالخليفة وعماله ، وقواد الجيش والقضاة ، ورؤساء الشرطة والوزراء ، وغيرهم ممن يقومون بأعمال عامة فى الدولة الإسلامية هم المعنيون بكلمة القيادة .

وهم بما خولهم الله من سلطة ، وبما أعطاهم المسلمون من ثقة عليهم من العبء أكثر مما على غيرهم من المسلمين ، وهم للدولة الإسلامية كالقلب للإنسان ، إذا صلحوا صلحت الأمة وإذا فسدوا كان القضاء الذى لا قيامه بعده ، حتى يعودوا إلى شرع الله .

ولقد فرض الله عز وجل على القيادة واجبات لا يجوز التفريط فى شيء منها ، وجعل لها حقوقاً لا يجوز للمسلمين أن يهملوها أو يقصروا فى أدائها .

لهذا كان لزاماً على القيادة أن تقوم بدورها ، وكان كذلك واجباً على الرعية أن تؤدى لها حقوقها ، فإذا أهملت القيادة أو قصرت الرعية ، اختلت موازين الدولة ، وتعرضت بذلك للضعف المؤدى إلى الضياع والهوان ، وأذنت بالانتهاء والزوال .

ولا خير فى قيادة لا تطالب بحقوقها ، ولا تؤدى واجبها ، كما لا رجاء فى رعية تنعم بجهد قادتها ، وتقصر فى إعطائها حقوقها ، ولكى تستقيم الأمور ، وتعمر الدولة ، وتبقى قوية عزيزة مرهوبة لا بد أن يقوم كل فرد فيها بالدور المنوط به ، عندئذ تجرى الأمور ، فى مجاريها الطبيعية ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

واجبات القيادة

إن واجبات القيادة الإسلامية نابعة من الوحي الإلهى الذى أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ ومن أجل هذا كان لزاماً على القيادة أن تنفذ بها ، وليس لها الحق فى ترك شيء منها ، أو التخلي عنها ، أو استبدال شيء منها بشيء آخر إلا أن يكون فيه مصلحة أعظم للمسلمين ، وتلك قاعدة شرعية ، قال بها

جمهور غفير من علماء المسلمين .

وتتلخص واجبات القيادة فيما يأتي :

- ١ — تنفيذ الشريعة .
- ٢ — نشر الدعوة .
- ٣ — القضاء على الطواغيت .
- ٤ — إعداد الجيش لإعلاء كلمة الله .

أولاً : تنفيذ الشريعة :

إن تنفيذ الشريعة ، وتطبيق حكم الله في الأرض ، هو أول واجبات القيادة وأعظم مهماتها ، ذلك لأن الله عز وجل إنما أمر بتنصيب الخليفة ، وأن الأمة إنما أعطته ثقته ، ليكون قائماً على أمر الله ، حارساً لشريعته منفذاً لأحكامها ، فإذا لم يؤد مهمته فلا خير في وجوده وإذا لم يقم بواجبه فلا داعي لتنصيبه .

والشريعة الإسلامية كل لا يتجزأ ، فلا يقبل فيها أداء العبادة وترك القيادة ، ولا يجوز معها إقامة الدين وإهمال الدولة ، ولا يصح في نظامها التزام النصيح والإرشاد وعدم الاهتمام بالجهاد ، والتفريط في شيء منها قل أو جل يعتبر إعراضاً عنها ككل .

فعلى القيادة مراعاة ذلك ، فلا تقبل من مسلم ترك شيء من أركان الشريعة مهما كانت حجته أو رأيه في التأويل ، ولقد قاتل أبو بكر رضي الله عنه مانعي الزكاة وكان لهم في ذلك تأويل ، ولم يقبل التفريق بين الصلاة والزكاة ، كما قاتل مسيلمة والأسود وسجاح لارتدادهم عن الإسلام ، ولم يفرق في الحرب بين هؤلاء وأولئك .

وإنما فعل ذلك رضي الله عنه لأنه وهو أفهم المسلمين للإسلام بعد رسول الله ﷺ موقن بأن ترك شيء من الإسلام كترك الإسلام كله ، فالمفرط في إقامة الصلاة كالمفرط في إقامة الحد ، ومانع الزكاة كالمرتد .

كذلك يجب أن تراعى القيادة عند التنفيذ شمول الإسلام وعمومه ،

فلا تهاون في تطبيق نظمه على الحياة وواقع الناس فالنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعسكري كلها أجزاء من الإسلام يكمل بعضها بعضاً ، ولا يمكن ترك شيء منها . واستبدال غيره به من النظم الوضعية ، والتهاون في تطبيق شيء منها خروج على النظام الإسلامي ، واعتقاد أن النظم الوضعية أو شيئاً منها أتم وأكمل من النظم الإسلامية كفر يخرج صاحبه من الملة .

وإعلان أن الحاكمية لله جل وعلا من أعظم ما يجب مراعاته عند تنفيذ الشريعة ، فالحكومة الإسلامية لا تحكم بغير حكم الله ، ولا تنفذ غير شرع الله ، ولا تدين بدستور غير كتاب الله قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (١) وقال : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ إِنْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (٣) .

وإقامة العدل بين الناس جميعاً عند تنفيذ الشريعة من أهم مقاصدها ، فالله عز وجل قد حرم الظلم على عباده كما حرمه على نفسه سبحانه روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلَا تَظَالَمُوا » (٤) وقال عز من قائل : ﴿ وَمَا أَنَا بِظُلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٥) .

وحيث كان الظلم حراماً في الشريعة الإسلامية يكون العدل واجباً لا محيد عنه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (٦) والتعبير بكلمة الناس هنا يشمل الأمر الناس كل الناس المسلم منهم وغير المسلم ذلك لأن العدل في نفسه مقصود في الشريعة الإسلامية دون تفريق بين أتباعها

(١) سورة يوسف ٤٠ .

(٢) المائدة ٤٦ .

(٣) النساء ١٠٥ .

(٤) رواه مسلم .

(٥) سورة ق الآية ١٩ .

(٦) النساء ٥٨ .

وغيرهم من البشر .

والآية الكريمة التي ذكرتها سابقاً ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ إنما نزلت لتبرىء ساحة يهودي اتهم — زوراً — بالسرقة وأشار إلى السارق الحقيقي ، وهو مسلم من بنى ظفر أفبعد هذه المثالية الرائعة في إقامة العدل ، وتحقيق الحق ، يدعى مدع أن الإسلام يتوخى العدل بين أتباعه فقط ؟

وتأمين الناس على عقيدتهم وعلى أموالهم وأنفسهم وأعراضهم من مهمة الحكومة الإسلامية ، فإنه من حق كل فرد يعيش في كنف الإسلام ، ويستظل بظل دولته أن يكون آمناً على كل ما ذكرنا ، لا يتعرض له أحد ، في شيء منها إلا بحقها ، وقد بين الإسلام هذا الحق وحدده ، فلا يجوز تجاوزه .

والشريعة الإسلامية قد أعلنت الأمان للناس جميعاً ورسول الله ﷺ يبلغ عن ربه هذا الإعلان في خطبة حجة الوداع ، بصورة لا تحتمل الشك ولا التأويل ، فيقول : « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » .

وكان عمر رضي الله عنه يكره ترويع الناس وإخافتهم فقد روى أنه تنحج والحجام يقص له شعره ، فذهل الحجام عن نفسه ، وكاد يغشي عليه ، فأمر له بأربعين درهماً^(١) .

وكان عمر رضي الله عنه أراد تعويض الرجل عما أصابه حتى تهدأ نفسه ، ويسترد أنفاسه .

وقد روى عنه أيضاً أنه كان يكتب إلى عماله ﴿لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تحبسوهم فتروعوهم﴾ .

وقد أباح الإسلام للإنسان أن يدافع عن ماله وعرضه إذا حصل اعتداء على شيء منها ، واعتبر الموت في حال الدفاع عنها شهادة ، وضمن الأمن

(١) عبقرية عمر ص ٢٠ للعقاد .

والأجر لمن ينتصر في المعركة .

يقول ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد » (١) .

هكذا يجب أن يعيش الناس في ظل الإسلام آمنين على كل ما يهمهم ، مطمئنين على أموالهم وأعراضهم ، ومن أجل هذا وضع الله عز وجل الحدود عقوبة لكل من يحاول الاعتداء على شيء منها .

فشارب الخمر يجلد لأنه اعتدى على عقله فغيبه وأضعفه والإسلام بهذا يؤكد أن العقل البشري ليس ملكاً لصاحبه يتصرف فيه كما يشاء ، وإنما هو بما ينتجه يجب أن يكون في خدمة المجتمع الذي يحيطه برعايته .

والسارق تقطع يده ، لأنه اعتدى على مال الناس وسلبهم حقوقهم .
والقاتل يقتل ، لأنه سلب إنساناً حياته من غير ذنب جناه .
والزاني يجلد إن كان عزباً ، ويرجم إن كان متزوجاً ، لأنه هتك أعراض الناس واعتدى عليها .

ففي إقامة الحدود تنفيذ للشرعة يأمن به الناس على ما يملكون .
وبالجملة فإن تنفيذ الشرعة ، يجب أن يكون عملاً تطبيقياً ، لا فكراً نظرياً ، يعيشه الناس في المجتمع الإسلامي واقعاً ينعمون به ، لا فلسفة يتطلعون إليها .

ولهذا فإن الله عز وجل وصف الذين يعرضون عن تنفيذ الشرعة بأخس الصفات وأبشعها ، حيث وصفهم بالكفر مرة ، وبالظلم مرة ثانية ، وبالفسق مرة ثالثة ، فقال جل شأنه :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .
﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .
﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) .

(١) رواه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٤ - ٤٥ - ٤٧ .

ثانياً : نشر الدعوة :

إن نشر الدعوة من أهم واجبات القيادة الرشيدة ، وإن الله عز وجل لم يرسل الرسل ، ولم ينزل الكتب إلا لتكون حجة على الناس ، ولقد روى لنا التاريخ أن الجيوش الإسلامية قد ضربت في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها تحمل للناس الخير ، وتدلهم على الرشد وتزيل عن طريقهم الطواغيت التي تعوقهم عن الوصول إلى هدى الله ، ومعرفة الحق والوصول إليه .

وإن مما يدل على ذلك ، ويوضح أن نشر الدعوة من أهم واجبات القيادة ، أن رسول الله ﷺ لم يكذب يستقر به المقام في المدينة المنورة بعد صلح الحديبية ، حتى كتب إلى الحكام في أقطارهم المختلفة يدعوهم إلى الله ، ويرغبهم في الدخول في الإسلام ، ويشرهم بالسلامة من عذاب الدنيا والآخرة إن أسلموا ، فإن هم أصروا على كفرهم ، فإنهم سيوعون بإثمهم وإثم أمهم .

ولقد كتب رسول الله ﷺ إلى قيصر ملك الروم ، وإلى المقوقس صاحب مصر وإلى النجاشي ملك الحبشة ، كما كتب إلى كسرى ملك الفرس .

وكانت كل كتبه ﷺ دعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإننا لنلاحظ أنه ﷺ كان يكتب إلى كل ملك بما يناسب حاله ووضعه ، ونظرة إلى كتبه تبين لنا مدى فهمه ﷺ لأحوال هؤلاء الملوك ، ومعرفته بالأسلوب الصالح لكل منهم .

فإذا كتب إلى كسرى يشدد اللهجة وينذره بالويل وتحمل الإثم إذا أصر وأعرض فيقول له « من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم الفرس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل فأني رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن توليت فإن إثم الجحوس عليك » (١) .

ذلك لأن كسرى يعتقد أنه وارث الحق الملكي المقدس عن أجداده وسليل الملوك لا يدعن بسهولة ، ولأنه كان مجوسى المذهب لا يدين بدين سماوى فكان هذا الأسلوب أليق به من غيره .

(١) تاريخ الإسلام ج ١ ص ١٦٠ ط ٨ حسن إبراهيم .

ونراه ﷺ إذا كتب إلى النجاشي ألان له الكلام وذكره بصفات الله عز وجل التي وردت عنه في الإنجيل وأشار له إلى نبوة عيسى وطهر مريم ، كل ذلك ليستميل قلبه للإسلام ، فقد كان النجاشي رجلاً نصرانياً يؤمن بالإنجيل ، ويعترف بمكانة عيسى وأمه مريم عليهما السلام فيقول له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلام الله عليك فأني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم ونفخه ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته ، وأن تتبعني ، وتؤمن بالذي جاءني ، فأني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرأ ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر ، فأني أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت فأقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى » (١) .

وهكذا نجد الأسلوب يتراوح بين الترغيب والترهيب ، تقديراً لموقف النجاشي ، وخشاً له على الدخول في الإسلام ، وحماية المسلمين الذين يفدون إليه .

ومن هذا العرض تتبين السياسة الرشيدة التي كان يسير عليها رسول الله ﷺ في معاملة الناس ودعوتهم إلى الله ، والأسلوب الحكيم الذي يتبعه في نشر الدعوة والتبشير بها .

فلما جاء الخلفاء الراشدون نهجوا نهج القائد العظيم ﷺ فكان رائدهم نشر الدعوة في كل الأصقاع والأزمان ، وكانوا يوصون قواد الجيوش التي يعثونها بتقوى الله في السر والعلن ، ويطلبون منهم عرض الإسلام أولاً على من يذهبون إليهم ، فإن أجابوا كفوا عنهم ولم يحاربوهم ، فإن أبوا طالبوهم بالجزية ، فإن رفضوا فهم هم الطواغيت يجب إزالتهم من طريق الحق حتى يتضح للناس وعندئذ لا مفر من الحرب فهي الوسيلة الوحيدة لإزالة الطغيان وتأمين الطريق للباحثين عن الحق .

(١) نفس المرجع والصفحة .

وحتى مع الناس جميعاً كان ﷺ يدعوهم إلى الإسلام فقد أرسل بعد فتح مكة الرسل والسرايا يدعو الناس إلى الدين من غير قتال ولا سفك دماء .

يقول الأستاذ هيكل : « وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوماً ينظم خلالها شئون مكة ، ويفقه أهلها في الدين ، وفي هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال ، ولتحطيم الأصنام من غير سفك دماء » (١) .

فلما تولى أبو بكر رضى الله عنه وكان المرتدون قد توردوا ، وأعلنوا خروجهم على الإسلام ، كان الخليفة يرسل الجيوش لدعوهم إلى الإسلام فإن لبوا تركوا وشأنهم وإن أصروا على الكفر قاتلوهم حتى يفيئوا إلى الإسلام .

يقول الأستاذ العقاد : « وفي عهد أبى بكر رضى الله عنه وجه خالداً إلى بعض أهل الردة يدعوهم إلى أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا إليه » (٢) .

وفي عهد عمر رضى الله عنه والمعركة دائرة بين المسلمين والفرس ، وفي حملة القادسية بالذات ، يرسل القائد — سعد بن أبى وقاص — رسلاً إلى يزدجرد ، وكان بينهم النعمان بن مقرن رضى الله عنه وأخذ النعمان يتكلم عن أصحابه ويوجه الكلام إلى يزدجرد ملك الفرس .

يقول ابن الأثير : « فتكلم النعمان عن أصحابه ، فقال : إن الله رحمننا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة . . . إلى أن قال : فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه — الجزية — فإن أبيتم فالمناجزة » (٣) .

ومن هذه الأمثلة يتضح لنا أن مهمة الخلفاء الأساسية هي نشر الدعوة وإدخال الناس في الإسلام ، فإن أجابوا كان لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا طولبوا بالجزية ، فإن أجابوا حقنوا دماءهم وعصموا أموالهم ، وإن رفضوا فليس هناك إلا الحرب ، وآخر الدواء الكى .

(١) حياة محمد ص ٤٢٦ لـ هيكل .

(٢) عبقرية عمر ص ١٨٠ للعقاد .

(٣) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣١٥ .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه دخل الناس في دين الله أفواجا ، وشكا إليه عماله قلة الدخل بسبب إسدām الناس ، وعدم دفع الجزية ، فأرسل عمر إليهم بكلمته الماثورة ۝ إن الله أرسل محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يرسله جايياً ۝ (١) .

إن هذه الكلمة مع بساطتها تحمل الحقيقة الكبرى التي يحملها كثير من الناس ، وتبين الغاية العظمى لتلك الرسالة الإنسانية السامية ، ألا وهي : دعوة الناس إلى الخير ، والأخذ بأيديهم إلى الحق ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

إن نشر الإسلام ، وتبليغه للناس هو الغاية التي من أجلها أرسل الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ وهو التطبيق العملي للآية الكريمة ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٢) .

بل هو اللحن العذب الموحى به الهتاف الرباني الكريم ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ (٣) .

كيف ننشر الدعوة ؟

ويجب على القيادة أن تتبع في نشر الدعوة كل أسلوب يوصل إلى تلك الغاية ، ويحقق المطلوب في النهاية ، وعلينا أن نعتمد الأساليب الحديثة التي استغلها أعداء الإسلام في بث عقائدهم ونشر أفكارهم ، وتتلخص هذه الوسائل فيما يأتي :

أولاً : وسائل الأعلام :

وهي بكافة أنواعها أسلوب جيد إذا أحسن استغلاله ، فالصحف

(١) الخراج لأبي يوسف ص ١٣١ .

(٢) الصف ٢ .

(٣) الأحزاب ٤٥ - ٤٦ .

اليومية ، والمجلات الأسبوعية أو الشهرية ، والنشرات الدورية ، والإذاعة والتلفزيون ، كل هذه وسائل هامة ومفيدة في نشر الدعوة .

وعلى القيادة أن تستغل الكفاءات والمواهب ، في استعمال هذه الوسائل ، وعليها أن تدرب وتقرن إذا لم يكن لديها كفاءات وعليها أن تهتم بالتخصص ، فتبعث من كل فرقة طائفة تتقن فناً من فنون الإعلام — ولو إلى بلاد الأعداء — فالحكمة ضالة المؤمن ، وهو أحق بها أنى وجدها .

وعلى هؤلاء المتخصصين دراسة ميول الناس ورغباتهم وأن يعرفوا الأساليب التي تؤثر فيهم ، وتجذبهم إلى ما يدعونهم إليه ، فهناك القصة ولها أثرها الواضح في نفس السامع والقارئ ، وهناك التمثيليات الهادفة التي تبعث في النفوس الطموح ، وتثير فيها حب الجهاد في سبيل الله ، وفي تاريخنا مادة دسمة لهذه الموضوعات .

وهناك الحوار المثير الذي يحفز النفوس إلى الاستزادة ويدفعها إلى معرفة الحق ، وهناك المقالات التي تتغلغل في النفس البشرية ، وتحرك بين جوانبها الإيمان بفضل ما تحمله بين طياتها من خير ورشد وهداية .

فنحن إذا قدمنا للناس هذه الألوان من الأساليب ، وهي تحمل بين أحضانها ما تدعوهم إليه من العقيدة الصحيحة ، والإيمان العميق ، والأخلاق الفاضلة ، والمثل الحية ، والآداب والتقاليد التي نعز بها ، نكون قد ولجنا إلى قلوبهم من حيث يجب أن نلج ، ونكون بذلك قد قدمنا ل هؤلاء المولعين بهذه الأساليب عوضاً عما يلهثون وراءه من هذه التفاهات التي استولت على عقولهم فأضلتها عن الحق ، والخرافات التي استحوذت على قلوبهم فأنحرفت بها عن جادة الصواب ، والملهيات التي سيطرت على نفوسهم فأعرضت عن الرشد ، ومالت إلى الغي .

وآنئذ نستطيع أن نقول : أميطوا عنا هذا الأذى وهاكم العوض مائلاً بين أيديكم ، وآنئذ تنبهر أنفاس المخادعين ولا يلحقون بنا ، وتتقطع السبل دون المضللين فلا يصلون إلى ما يقصدون .

ثانياً : الكتب والبحوث :

ويستحسن أن تكون بأسلوب سهل ممتع ، يفهمه عامة الناس وخصائصهم ، وتتناول هذه الكتب وتلك البحوث الأفكار الإسلامية الصحيحة ، وفي مقدمتها العقيدة التي هي أساس الإيمان ، كما تتناول النظم التي جاء بها رسول الله ﷺ إلى الدنيا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وتعرض المشكلات التي دوخت الناس وتقدم لهم الحلول في ضوء الإسلام .

وتركز على المفاهيم التي حاول أعداء الإسلام إبعادنا عنها على أنها ليست من الإسلام ، وهي في الحقيقة من صميم الإسلام .

وذلك مثل سياسة الحكم ، وتنظيم الشؤون المالية ، وتأسيس المصارف ، وإعداد الجيوش ، وتنظيم الأحوال الاجتماعية وتدعيم الأمن ، وإنشاء المصانع ، وكفالة العاطلين ، والتأمين الصحي ، إلى غير ذلك مما أوهمنا أعداؤنا أنه من السياسة وليس من الدين .

ويفضل أن تعرض هذه الأفكار ونظيراتها في كتيبات يسهل حملها ، كما تسهل قراءتها ، كل فكرة أو نظرية أو بحث في كتيب على حده ، وتتسلسل في ربط قوى ، وجاذبية مؤثرة ، بحيث لا ينتهي القارئ من كتيب حتى يجد نفسه مشدوداً إلى قراءة ما يليه .

وقد اخترت أن نقدم الأفكار في كتيبات لأن الناس لم يعد لديهم طاقات بحمل الكتب الضخمة ، ولأن المشاغل الكثيرة صرفتهم عن مطالعة البحوث المطولة ، حاشا العلماء الباحثين وأصحاب الرسائل والمفكرين ، فهؤلاء تؤلف لهم المطولات التي تشبع رغبتهم ، والتي تتناول كل دقيقة وجليلة بالشرح والتفصيل ونرجع كل كلمة فيها إلى مصادرها الأصلية ، ومنابعها العميقة ذلك لأن عقولهم لا يقنعها السرد السريع ، ولا ترضى بالعرض السطحي ، وثقافتهم وإيمانهم لا يشبعها إلا الفكرة الناضجة والبحوث العميقة .

وثالثاً : الدعاة :

الدعاة هم الأشخاص الذين يحملون الدعوة إلى الناس بأعمالهم قبل أقوالهم ، وبسلوكهم وحسن سيرتهم قبل خطبتهم ومحاضراتهم ، ولهذا كان الاهتمام بتربية الدعاة وتدريبهم واختيارهم أمراً لا بد منه .

فالدعاة هم القدوة التي ينظر إليها الناس . ويتطلعون إلى خلقهم ومعاملاتهم على أنهم المثل الذي يحتذى ، والأسوة التي لا يرضون بها بديلاً ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يختار الدعاة ويرسل منهم إلى كل جهة ما يناسبها ، وما تحتاج إليه منهم .

فقد أرسل مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة ليعلم أهلها الدين ، ويحفظهم القرآن الكريم ، وأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليقوم بنفس المهمة ، وإذا بختنا هذا الاختيار وجدناه موفقاً كل التوفيق ، فمصعب في هذه الفترة هو أنسب الدعاة إلى أهل المدينة فقد كانوا في حاجة إلى من يقرئهم القرآن ، وهو فتي جلد يتحمل معهم ما يتحملون ، كذلك كان معاذ مع أهل اليمن ، حيث كانوا فقهاء يعجبهم عمق الإيمان والتقوى والورع ، وكانت هذه الصفات متوفرة في معاذ رضي الله عنه .

كذلك كان عمر رضي الله عنه يختار الدعاة ، ثم يرسلهم لينشروا الإسلام ، ويفقهوا الناس ، فقد أرسل إلى الكوفة عبد الله بن مسعود فاجتمع حوله الناس ، يفقههم ، ويؤدبهم بأداب القرآن ، حتى قال فيهم سعيد بن جبیر رحمه الله : « كان أصحاب عبد الله سرج هذه القرية » (١) .

ولما احتاج أهل الشام إلى من يفقههم ، ويعلمهم القرآن ، أرسل يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب يقول له : « قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأرسل معاذاً وعباداً وأبا الدرداء » (٢) .

وهكذا كانوا يختارون الدعاة ، وينتقونهم انتقاء ، وأما في العصر

(١) فجر الإسلام ص ١٨٤ .

(٢) البخارى في التاريخ .

الحاضر ، وقد أصبحت الدعوة فناً يحتاج إلى دراسة وخبرات ، وأصبح الدعاة في حاجة إلى دراسة أساليب الأعداء ، ليستعملوها ضدهم ، ولتجنبوا خطرهما في أصحابهم .

وحيث أصبح الدعاة يبنون عملهم على أسس علمية مدروسة تبحث نفسيات الناس ، وأوضاعهم الاجتماعية ، وأحوالهم الشخصية ، ثم يرسمون الخطط ، ويدأون في التنفيذ .

فهناك المدارس التبشيرية ومناهجها التي وضعت على أسس نفسية لتخرج الناس من دينهم ، وهناك الدعايات الحزبية التي تعتمد الإغراء وتتوخى اللعب بعقول السذج والبسطاء ، وهناك المستشفيات لمعالجة المرضى ، واستغلال أوضاعهم النفسية القلقة والإيعاز إليهم بما يغريهم بالدخول في دينهم أو مبادئهم إلى غير ذلك من الأساليب .

لهذا كان لزاماً أن يتسلح دعائنا بكل هذه الأسلحة ، فيدرسون ما يدعون إليه دراسة علمية صحيحة ، ويستعملون سبل الإقناع المدعمة بالأدلة العلمية المدروسة .

ونحن نتفوق على غيرنا ببساطة الأفكار التي ندعو إليها حيث لا فلسفة ولا تعقيد ، ولا تنويه ولا تثليث ، كما نتفوق بوضوح الدين الذي ندعو إليه ، والآله الذي ندين له وشعور الناس بحاجتهم إلى ما ندعوهم إليه ، واطمئنان النفوس إلى المصير الذي تنتطلع إليه في ظل دعوتنا ، وراحة القلوب من الهموم التي استولت على الناس فأزعجتهم .

لهذا فإننا لسنا في حاجة إلى استغلال الأوضاع النفسية ، أو الظروف الاقتصادية لمن ندعوهم ، بل نحن نقدم لهم المعونة لتحسن أوضاعهم النفسية ، وتزول ظروفهم الاقتصادية ثم ندعوهم وهم في كامل صحتهم وأنسب ظروفهم ، عندئذ يفهمون الحق ، ويدخلون في دين الله ، ويستجيبون لداعي الله .

مجالات العمل :

ومجالات العمل لدى الدعاة تنحصر — على تعددها — في أمرين هامين ، هما الأساس الذى يجب أن ينشط فيه الدعاة ، ذانكم هما : الاتصالات الفردية ، والندوات والمحاضرات العامة .

وهما مجالان من أخصب الحقول للعمل الإسلامى ، حيث تكون النتائج — فى معظم الأحيان — مضمونة والفائدة حاصلة .

أ — الاتصالات الفردية :

حين يقوم الدعاة بعد اتصالات ، وإنشاء صداقات بينهم وبين أفراد يتوسمون فيهم الخير ، ويلمحون منهم الميل إليه والرغبة فيه ، عندئذ تبدأ مهمة الداعية ، وليس كل إنسان يصلح لهذا النوع من العمل ، بل لا بد من توفر صفات فى الدعاة الذين يقومون بتلك المهمة .

فالشخصية المؤثرة المحبوبة ، والخلق الكريم الفاضل ، وسعة الاطلاع التى تجعل المدعويين يقرون بفضل الداعى ، ورحابة الصدر التى يستوعب بها كل العقبات ، ويتغلب بها على كل ما يعترضه ، وحسن الحديث الذى يذعن له المستمعون ، وبشاشة الوجه التى يستحوذ بها على الجالسين ، والمجاملات اللطيفة التى يستولى بها على قلوب من يتصل بهم ، كل هذه وأمثالها صفات يجب أن يتحلى بها الداعية ، فإنه على أساسها يستحدث الصداقات ، ويقوى العلاقات ، وحينئذ ينتهز المناسبات لعرض الدعوة ، وإظهار محاسنها ، ويؤكد على الأدلة التى تثبت صحة ما يقول .

عندئذ تتحول الصداقة إلى محبة ، والمحبة إلى أخوة ، ثم يتحقق الغرض المطلوب .

ب — المحاضرات والندوات :

والدعاة هنا يجب أن يذهبوا إلى الأماكن العامة ، وينتهبوا فرص اللقاءات

والاجتماعات ، وأن يرتبوا هم لإيجاد هذه الاجتماعات ليلتقوا فيها بالناس ، ويعرضوا عليهم أفكارهم ومبادئهم في صورة محاضرات أو ندوات ، وليس كل إنسان يستطيع القيام بهذه المهمة ، بل هناك شروط وصفات لا بد من تحقيقها ، منها ما هو في موضوع المحاضرة ، ومنها ما هو في الداعية نفسه .

فأما التي في الموضوع فتتلخص فيما يأتي :

١ - يجب أن يكون الموضوع متناولاً للمشكلات التي يعاني منها الناس في المجتمع الذي يعيشون فيه ، وتقدم حلولاً لها في ضوء الإسلام .

٢ - أن يكون الموضوع مشتملاً على مسائل يجب أن يعرفها المسلمون كتوضيح النظم الإسلامية المختلفة ، وإظهار أن في تطبيقها سعادة للبشرية .

٣ - أن يكون في الموضوع مقارنات بين النظم الإسلامية وغيرها من النظم القائمة .

٤ - أن تشتمل على ما يظهر فضل الإسلام ، وحرصه على تحقيق الخير للناس أجمعين .

٥ - إظهار الحضارة التي وضع أساسها القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وإبراز القواعد الإنسانية السامية التي قامت على تلك الحضارة التي سعدت بها الإنسانية فترة من الزمان إلى غير ذلك من الموضوعات الهامة .

وأما التي في الداعية فتتلخص فيما يأتي :

١ - أن يكون نموذجاً لما يدعو إليه مطبقاً له في سلوكه وخلقه ومعاملاته ، متخلفاً بأخلاق القرآن في كل ما يدعو إليه .

٢ - أن يهتم بمظهره الإسلامي العام ، فلا يبدو مخالفاً لسنة مشهورة ، أو متخلفاً عن خير يدعو الناس إليه .

٣ - أن يتمسك بالإسلام كنظام شامل لجميع نواحي الحياة كما يتمسك به كتقيدة صحيحة ، وشرعية محكمة .

٤ - أن يحترم عقول الناس وأوقاتهم ، فيعد الموضوعات التي يحاضر فيها

إعداداً وافياً ، ويدعمها بالأمثلة المقنعة ، والأدلة العقلية القاطعة ، مبرهنات على ما يقول بما حدث فعلاً في الفترة التي كانت فيها للإسلام دولة قائمة ، وحكومة مهيمنة .

ولا يتكلم فيما لا فائدة منه ، ولا يدخل في مناقشات لا يترتب عليها عمل مشر ، ولا يتناول موضوعات تافهة لا ترفع من مستوى الناس ، ولا موضوعات فلسفية تضرب في متاهات لا يعرف العقل منها مخرجاً .

٥ - أن يتحرى الأسلوب السهل الممتنع الذي يستفيد منه البسطاء ولا يملأ العلماء ، وأن يراوح فيه بين الفكاهة المرحية ، والجد الحاسم ، كما يراوح في المعاني بين الترغيب والترهيب ، وأن يتناول الحقائق العلمية ، ببساطة في الأسلوب ، وخفة في الألفاظ حتى تتقبلها النفوس ، ولا تنفر منها العقول . وهكذا يكون الداعية قد أدى الدور الذي في عنقه لدعوته وأخلى نفسه من المسؤولية بين يدي الله عز وجل .

ثالثاً : القضاء على الطواغيت :

الطواغيت جمع طاغوت وهو مشتق من الطغيان الذي هو تجاوز الحد ، فالشيطان الذي يصرف الناس عن الخير طاغوت والصديق الذي يلهي صديقه عن الحق طاغوت ، والزوجة التي تحول بين زوجها والدعوة إلى الله طاغوت ، والمال الذي يورث صاحبه غطرسة وكبراً يصرفانه عن الرشد طاغوت ، والحاكم الذي يشرع للناس ليصرفهم عن شرع الله ، أو يخوفهم فلا يتمكنون من عبادة الله ، أو يحجر على أفكارهم وعقولهم حتى لا يروا إلا ما يرى ، ولا يفعلوا إلا ما يهوى طاغوت .

يقول الشوكاني في تفسير الآية الكريمة ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾ (١) :

الطاغوت الأصنام أو الشيطان أو كل رأس في الضلال (٢) .

ويقول البيضاوي : الطاغوت كل ما يعبد من دون الله أو يصد عن عبادة الله (٣) .

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .

(٢) فتح القدير .

(٣) تفسير البيضاوي .

فالتطاغوت إذن هو كل ما يصرف الناس عن الله عز وجل أو عن الحق الذى دعاهم إليه سبحانه على لسان رسوله ﷺ وإذا كان الأمر كذلك ، كان من أوجب واجبات القيادة الإسلامية القضاء على هذه الطواغيت لتدلل للناس الطرق الموصلة إلى الله ليهتدوا إلى الحق الذى دعاهم إليه ، ولتحقيق هذه الغاية السامية ، حذرنا سبحانه وتعالى من الشيطان ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (١) وخوفنا من مصادفة إخوان السوء ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) كذلك حذرنا من الزوجة غير الصالحة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ (٣) ونبها إلى خطورة فتنة الأولاد والمال ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٤) .

ثم أعلن الحرب على الحكام الطغاة الذين يشرعون للناس ويصدونهم عن الطاعة ، ويحولون بينهم وبين الحرية التى ينشدونها ، ليبحثوا بعقولهم عن الحق الذى فقدوه ﴿ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ (٥) .

إن مهمة الحكومة الإسلامية هى تبليغ الحق للناس ، وتمهيد الطريق للعقول كي تفكر وتقتنع بهذا الحق ، فإذا كانت هناك عقبة وجب عليها إزالة هذه العقبة ، والقضاء عليها ، حتى تنهيا للعقول فرصة التفكير الحر فى ظل هذه الظروف ، وعندئذ تتاح لها فرصة الاختيار بعيدة عن الضغط والتهديد ، فإن عرفت الحق واهتدت إليه كان بها ، وإن ضلت الطريق ، عرضت بين يديها الأدلة المقنعة ، والبراهين القاطعة ، فإن أصرت على الباطل فإما الجزية وإما الحرب .

ولا يختلف اثنان فى أن الطغاة عقبة كأداء فى سبيل الحرية — حرية الفكر الإنسانى — ذلك لأن حرصهم على دست الحكم يدفعهم إلى تكميم الأفواه حتى لا تتكلم ، وتعطيل العقول حتى لا تفكر ، والحجر عليها لكي تعيش فى الظلام ، والحيلولة بينها وبين الحق لتظل هائمة فى الباطل .

(١) سورة فاطر ٦ .

(٢) سورة الزخرف ٧٦ .

(٣) التغابن ١٤ .

(٤) سورة التغابن ١٥ .

(٥) التوبة ١٢ .

وكثيراً ما يلبس هؤلاء الطغاة لشعوبهم مسوح الرهيان ، ويكون بدموع التماسيح ، مدعين أن الرسل والدعاة إلى الحق قوم مخربون يريدون القضاء على ما ينعم به الناس من الحرية والعدالة ليحلوا محلها المبادئ الزائفة الهدامة .

هكذا يوسوس الطغاة لشعوبهم الضحية حتى يصرفوهم عن الحق الذى يدعوهم إليه المصلحون ، والآية الكريمة تصور لنا مشهداً طريفاً من هذا النوع من الخداع والتضليل .

هذا فرعون يقف فى قومه الذين غلبهم على عقولهم ، وأقنعتهم بسخافته ربوبيته — يناشدهم أن يتركوه ليقتل موسى ، لأنه جاءهم ببدع لم يعرفوه ، وفرعون يخشى أن يبدل موسى دين القوم ، ويظهر فى الأرض الفساد ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ، إني أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ (١) .

إن هؤلاء الطغاة يرمون غيرهم بأدوائهم ، ويتمنون المصلحين بما فعلوه هم فى شعوبهم ، هؤلاء الطغاة يقفون فى وجه الحق دائماً لأنهم يعلمون أنه السلاح الذى يقضى على باطلهم ، ويحطم طغيانهم ، ويحرر المستعبدين من جبروتهم ويضئ الطريق للناس ، ليروا الحق ، ويعيشوا فى النور ، وينعموا بالحرية — حرية العقيدة والقول والعمل — ويتمتعوا بالعدالة — عدالة السماء — ومن أجل هذا كان الطغاة فى كل زمان ومكان أعداء للحق ، وكان الحق حيثما كان خصماً للطغاة .

لهذا كان لزاماً على القيادة الإسلامية القضاء على الطغاة المتجبرين ، الذين يصدون عن سبيل الله ، ويمنعون الناس من الدخول فى دين الله ، ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ (٢) .

ولا شك أن الناس — إلا القليل — يرهبون السلطة أكثر مما يرهبون الحق ، ويخافون من السلطان أشد مما يخافون من الله ، ولهذا كان لا بد من وجود سلطة تحرس الحق من عدوان الطغاة ، وكان لا بد من وجود سلطان

(١) سورة غافر ٢٦ .

(٢) سورة البقرة ١٩٣ .

يحمل الناس على الخوف من الله عز وجل وبذلك تستقيم أمور الناس ، وتستقر الأوضاع في الأرض على وجهها القويم .

والحق عندنا هو الإسلام ، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ (١) والسلطة هي الحكومة الرشيدة القائمة على أمر الله ، والسلطان هو الحاكم المسلم المنفذ لأحكام الله ، القائم بالعدل والقسط بين الناس جميعاً على السواء . ولا يمكن أن يكون ذلك وفي الأرض حكام طغاة ظالمون يعبدون الناس لجبروتهم ، ويرهبونهم بظلمهم وطغيانهم فلا بد إذن من إقامة العدل والقضاء على الطغيان ، وتلك مهمة القيادة الرشيدة .

رابعاً :- إعداد الجيش :

إن إعداد الجيوش للقيام بالمهام الخطيرة الملقة على عاتقها أمر حيوى بالنسبة لكل دولة أياً كانت تلك الدولة ، لأنه يحتاج إلى الاهتمام بالتواحي المختلفة المكونة لكل فرد من الجنود ، ولأن الإهمال في أى جانب منها يؤدي إلى خلل في أكبر ركن تعتمد عليه الدول في حماية مبادئها ومقدساتها .

ولما كان الجيش هو الحصن الذى تتقى به الأمم أعداءها والسهم الذى ترمى به نحر من يعتدى عليها ، كان لا بد من تدعيم الحصن بكل ما يحتاج إليه ، وكان لا بد كذلك من إراشة السهم حتى يصيب حيث يسدد .

وإعداد الجيوش يحتاج إلى العناية الفائقة بكل معنويات الجيش ، كما يحتاج إلى العناية بتقوية أجسام الجنود وعقولهم وهذا يقتضى وضع برنامج تربوى للجيش الإسلامى ، يعتنى فيه بالجانب الروحى بقدر عنايته بالجانب الجسمى ، ويهتم فيه بالجانب الأخلاقى بقدر اهتمامه بالتدريب العسكرى .

ولقد اضطلعت القيادة الإسلامية بهذه المهمة الخطيرة ووصلت فيها إلى الغاية التى تتطلع إليها القيادات المثالية فكان لها جيش لم تعرف الدنيا له نظيراً في الشجاعة والتضحية والبراعة والإقدام .

ولقد كان للظروف التى نشأ فيها الجيش الإسلامى أثر كبير في تكوين

(١) سورة يونس ٣٢ .

هذا الجيش ، كما كان للعناية الفائقة ، والتربية النادرة التي حرصت القيادة الإسلامية على توفيرها له ، دخل كبير في تفوق هذا الجيش على أقرانه من جيوش الأمم التي عاصرتة مع تفوقها عليه في العدد والعدد ، وتوفر الإمكانيات وفرص التدريب .

إن الإسلام الذي أرسل الله عز وجل به رسله ، وختمهم بمحمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين حرص على نشر الحق بين الناس كما حرص على هدايتهم ، وتوصيل الخير لهم ، ولما كانت الدنيا ميدان تنافس بين قوى الحق والباطل وحلبة صراع بين الخير والشر كان لا بد من وجود قوة تحمي الحق وتنشره بين الناس ، وتقدم الخير لبنى الإنسان ، وتحميهم من اعتداء المعتدين ، وكانت هذه القوة هي الجيش .

من أجل هذا فرض الله الجهاد على القادرين من المسلمين فريضة ماضية إلى يوم القيامة ، وكان فرض الجهاد على المسلمين هو المرسوم الأول بتكوين الجيش الإسلامي في ظل القيادة الإسلامية الرشيدة .

عاش المسلمون في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً ، وهم عاكفون على دينهم يلقونه من رسول الله ﷺ غصاً جديداً ، يزكون به أنفسهم ، ويحيون بنوره قلوبهم ، فكانوا يجتمعون حول رسول الله ، في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، يعون كل كلمة تخرج من فم الرسول ، وينفذون كل أمر يصدر منه .

ولم يكذب ﷺ يصدع بدعوته تنفيذاً لأمر الله ﴿ فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ﴾^(١) حتى عمت مكة موجة من السخط المتصاعد ، تفتقت عنه قلوب ضاقت بالرسالة ، فلم تستطع كتمانها ، وزاحت تصب جام غضبها على المسلمين ، وبخاصة المستضعفين منهم .

وسجل المسلمون صوراً من البطولة تضيق عن حصرها صفحات الكتب ، وتعجز عن توضيحها بلاغة الأدباء ، وأقلام الفصحاء .

وأخذ المسلمون يستبسلون في الموقف من جانبيين هامين :

(١) سورة الحجر ٩٤ .

الأول : الصمود في وجه الطغيان ، والترفع عن الانحناء أمام الطواغيت .

والثاني : الثبات على العقيدة ، وعدم الحية عنها مهما اشتدت قسوة العذاب ، وزادت مرارته .

فهذا بلال بن رباح رضي الله عنه يعرى من ثيابه ، ويسحب في حر الظهيرة على بطحاء مكة ، وتحمل الحجارة الضخمة وتوضع على صدره ليرجع عن دينه ، فلم يزد ذلك إلا إيماناً وثباتاً ، ويردد قوله المشهورة : أحد أحد .

وهذا ياسر أبو عمار رضي الله عنه يكوى بالنار ، وتغرز أسياخ الحديد في لحمه حتى تنطفئ ، ويصب على رأسه الماء الحار فلا يصرفه ذلك عن دينه .

ثم يأتي دور سمية أول شهيدة في الاسلام ، تعذب مع زوجها وابنها ، ثم تشد إلى فرسين ، يوجه أحدهما إلى جهة والآخر إلى جهة مختلفة ، فتشطر شطرين ، وتودع الحياة ثابتة على عقيدتها مستعلية على الكفر ، ساخرة من الكافرين .

وصبر المسلمون على هذا الأذى صبراً تجاوز الطاقة البشرية وتحملوا من العذاب ما لا تتحمله الرواس ، والمشركون يتمادون في غيهم ، ولا يقلعون عن طغيانهم .

وذهب الصحابة إلى رسول الله ﷺ يستأذنونهم في مواجهة الكفار ، فيرد عليهم بقوله : « اصبروا فإنني لم أؤمر بقتال » (١) .

أحسن المسلمون بكفاءتهم لصعد العدوان ، وهم وإن كانوا لا يزالون قلة في عددهم إلا أنهم يجدون في إيمانهم ما يعوضهم عن كثرة أعدائهم ، وقلة عددهم .

ودخل أسد الله حمزة بن عبد المطلب في الإسلام ، وأعقبه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حوله من بيت الأرقم يمضون في صفين متجهين إلى المسجد الشريف بين تكبير وتهليل ، ومنذئذ بدأ التحدي بين أولياء الله وأولياء الشيطان .

(١) فتح القدير ج ٣ ص ٤٥٦ .

مشروعية الجهاد :

لم يكن القتال شيئاً جديداً على العرب ، فقد كانوا غارقين فيه إلى آذانهم ، وكانوا يشنونونه لأنفه الأسباب وأحقرها ، وكانت غارات السلب والنهب لا تنقطع إلا بالقدر الذى يستجم فيه المتقاتلون ليستأنفوا القتال .

استغل الإسلام هذا الميل الذى طبع عليه العرب ولكنه لم يتركه لأهوائهم ، بل تناوله بالتهذيب والتنظيم ، شأنه فى ذلك شأنه فى العادات التى أقرها عند العرب .

لقد وضع الإسلام للقتال قواعد ثابتة لا يجوز لمسلم مهما كان أن يتعدها ، فحرم الحرب من أجل السلب والنهب ، واعتبرها اعتداء لا يليق يقوم ذوى عقيدة صحيحة ، ومبادئ سامية ، قال تعالى : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (١) .

ومنع الحرب من أجل العداوات الشخصية ، والمثارات والعصبية والقومية ، واعتبرها قرينة للكفر ، قال — ﷺ — : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض » (٢) .

ثم شرع الحرب من أجل دفع الظلم وصد العدوان ، قال — تعالى — : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ (٣) .

وشرعها لتحطيم الطاغوت الذى يحول بين الناس وبين اعتناق ما يريدون من العقائد الصحيحة ، والدخول فى الاسلام ، قال — تعالى — : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (٤) .

وبهذا يتقرر أن الجهاد فى الاسلام له خطة واضحة ، ومنهاج قويم ، كما يتضح أن الجهاد ليس دفاعيا فقط ، كما يزعم كثير من الناس ، بل هو هجومي

(١) سورة البقرة ١٩٠ .

(٢) رواه مسلم ج ١ ص ٥٨ .

(٣) سورة الحج ٣٩ .

(٤) سورة التوبة ٣٦ .

أيضا ، يبدأ به المسلمون من ظلمهم أو اعتدى عليهم ، كما يبدأون به من صد الناس عن دين الله ، ومنعهم من الدخول فيه .

ولقد قام المسلمون بالجهاد ، وأدوا هذه الفريضة على كل حال سواء كانت في حالة الدفاع كما في غزوتي أحد والخندق أو في حالة الهجوم كما في غزوة بدر وغزو الفرس والروم حيث اعتدى أهل مكة ، على المسلمين فعذبوهم واستحلوا أموالهم وتجاراتهم ، ووقف الأكاسرة — ملوك الفرس — والقيصرة — ملوك الروم — يرهبون الناس بسلطانهم ، ويصدونهم عن الدخول في الاسلام ، أو حتى عن التفكير فيه .

وعندئذ جرد المسلمون الجيوش ، وسيروها إلى هؤلاء الطواغيت ليحطموا كبرياءهم ، ويزيلوا هذه العقبة من طريق الناس ، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تحقق للناس الأمن ، وتزيل عنهم هذا الكابوس ، فانساب الإسلام إلى قلوبهم ، كما ينساب الماء إلى الأرض الميتة فأعاد إليهم إنسانيتهم التي فقدوها تحت وطأة الطغيان وحقق لهم حريتهم التي حرموها تحت نير الظلم ، وقد كانوا — لولا الإسلام — دمي لا عقول لهم ، وعبيد لا يتحركون إلا حيث يشير سيدهم ، ولا يؤمنون إلا بما يؤمن به رؤساؤهم .

لهذا شرع الله عز وجل الجهاد ، وجعله فريضة ماضية إلى يوم القيامة ، قام بها الجيش الإسلامي خير قيام فحرر الناس من عبودية الناس ، وأطلقهم من طغيان الجبابة ، فرأوا النور بعد أن حرموه ، فهرعوا إلى الإسلام تحت حراسة الجيش الإسلامي ، وعاشوا آمنين على عقيدتهم في رعايته .

كيف نكون الجيش الإسلامي ؟

لقد فرض الله الجهاد على هذه الأمة ، ولم يخص به قوماً دون قوم ، ولا فئة دون فئة ، وحتى الذين استثناهم من وجوب الجهاد عليهم ، لم يمنع من جواز اشتراكهم في القتال إذا هم رغبوا في ذلك ، وإنما منحهم حق القعود بلا إثم ولا جريرة .

أخرج البخاري عن يزيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أمل عليه :

لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ، فجاء ابن أم مكتوم وهو يملئها على فقال : يا رسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدت — وكان أعمى — فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي ﴿ غير أولى الضرر ﴾ (١)

فكان نسق الآية بعد ذلك ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله ﴾ (٢) .

ثم نزلت الآية الأخرى فبينت أولى الضرر المعذورين في الجهاد فقال تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ﴾ (٣) وبهذا أصبح المعذورون هم : الأعمى والأعرج والمريض ، فإذا قعد هؤلاء عن الجهاد فلا إثم عليهم .

ومن مضمون الآية نفهم أن كل أفراد الأمة غير المعذورين جنود في الجيش الإسلامي ، مكلفون بالخروج معه إذا غزا أو خرج لصد العدو .

وإذا أراد أحد المعذورين الاشتراك في الجهاد فللقائد أن يقبل منه أو يرده ، مقدراً في ذلك ظروف المسلمين ، ومصلحة الجيش ففي غزوة أحد جاء عمرو بن الجموح رضى الله عنه وكان رجلاً كبير السن شديد العرج ، وله أربعة أولاد كلهم يجاهدون في سبيل الله ، فلما أراد الخروج منعه أولاده ، وقالوا : نحن نكفيك ، فذهب عمرو إلى رسول الله وأخبره الخبر ، وقال : ائذن لي يا رسول الله ، فإنني أرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة ، فأذن له ﷺ واستشهد رضى الله عنه في تلك الغزوة ، وقال ﷺ : « رحم الله عمرو بن الجموح ، لقد رأيته يطأ بعرجته الجنة » (٤)

وعلى هذا يكون الجهاد فريضة على الأمة الإسلامية كلها بالقدر الذي يطيقه كل فرد منهم ، ما عدا هؤلاء المعذورين فالجهاد مباح في حقهم وليس فرضاً عليهم .

(١) صحيح البخارى ج ٦ ص ٤٥ .

(٢) سورة النساء ٩٥ .

(٣) سورة الفتح ١٧ .

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥٥ بتصرف .

أ - دور الشباب :

لقد كان للشباب دور مهم وفعال في تكوين الجيش الإسلامي ، والشباب هم عمدة الجيوش ودعائمها ، وعلى أكتافهم يقوم العمل الجاد المثمر في الحرب والسلم ، فلا غرو أن يتكون الجيش الإسلامي من الشباب في الدرجة الأولى ، وكان من الطبيعي أن يكون الشباب هم الأغلبية الساحقة في هذا الجيش الفتى .

فمصعب بن عمير رضي الله عنه كان لا يزال فتى يوم صرع في غزوة أحد ، وسعد بن أبي وقاص كان يناهز الثلاثين يوم قال له رسول الله ﷺ ارم فداك أبى وأمى ، وعلى بن أبى طالب ، كان لا يتخطى ذلك إلا قليلا يوم تحدى مرجأ في خيبر ، وغيرهم وغيرهم من الشباب الذين حملوا العبء الأعظم في الجيش .

وهذان ابنا عفراء - معاذ ومعوذ - شابان حدثان يثبتان جداره في الحرب ، وشجاعة نادرة يوم النزال ، وكنا يوم بدر من ألمع المحاربين روى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال : « إني لفي الصف يوم بدر إذا التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأنني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه يا عم أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخى ، وما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ، فقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله . قال : فما سرني أنى بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما إليه ، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، وهما ابنا عفراء » (١)

هكذا جيش الإسلام الشباب ، وخلق منهم رجالاً أكفاء لكل ما يتدبرهم له ، وهكذا كان الشباب في الجيش الإسلامي لا تهولهم المعارك ، ولا تخيفهم الدماء ، يتنافسون الخيرات ويتسابقون إلى جنة عرضها الأرض والسموات ، وميادين الجهاد في سبيل الله أفسح مجالاً لإدراك ما عند الله من النعم .

(١) صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٠٧ .

ب - دور الصبيان :

لم يكن التنافس على الموت مقتصرأ على الشباب ، ولعل للشباب حين يتنافس على الموت تبريراً قوياً فالشباب ممتلئ حماسة وقوة ، يتدفق في عروقه أمل يغريه بالإقدام ليجد أمامه ما أعده الله له من عظيم الأجر وكرم المثوبة .

أما الصبيان الصغار الذين لم يتجاوزوا الحلم ، فإنهم عادة يخافون من الدماء ، ويفزعون من سماع القتال والقتل فما بالنا نراهم هنا ، وفي ميدان المعركة الملتهبة تتوق نفوسهم لرؤية الدماء ، وتتحرق قلوبهم شوقاً إلى الموت .

لم يكن إذن حماس الشباب هو الدافع إلى المغامرة ، ولم يكن الطيش وعدم التقدير هما السبب في خوض الشباب لهذه المعارك بل كان هناك سبب أهم من هذا كله ، ذلكم هو الإيمان العميق الذي استقر في قلوب المسلمين — صغيرهم وكبيرهم — فدعاهم إلى الحرص على إدراك وعد الله لمن يقاتل في سبيله ثم يقتل ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ (١)

لهذا رأينا الصغار الذين لم يبلغوا بعد سن التجنيد يسمعون أن رسول الله ﷺ يعد جيشاً لملاقاة أعداء الله ، فيسرعون إلى الميدان ، وينتظرون دورهم في التجنيد .

وهناك في الميدان نرى عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، وأباً سعيد الخدري ، والبراء بن عازب ، وزيد بن أرقم وعرابة بن أوس ، وعمر بن حزم ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، وقف الجميع ينتظرون رأى القائد فيهم ، ويتطلعون أن يكونوا جنوداً في هذه المعركة .

وأشرف القائد العظيم على الجيش المتطلع لملاقاة عدوه ورأى الصغار ينتظرون أوامره ليكونوا في عداد المقاتلين فرد جماعة منهم لصغرهم ، وأقر من

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ — ١٧١ .

كان منهم مطيقاً .

وكان ممن أقرهم رسول الله ﷺ البراء بن عازب وسمرة بن جندب ،
ورافع بن خديج (١)

والمشهد الرائع هنا الذى يستولى على العقول ، ويأخذ بالقلوب ويثبت
الرجولة المبكرة فى هؤلاء الصبيان الذين رباهم الإسلام مشهد سمرة بن جندب
ورافع بن خديج .

سمع رسول الله ﷺ أن رافع بن خديج رام ماهر فى الرمي فأجازه ،
فغضب سمرة بن جندب ، وقال : أيجيز رسول الله ﷺ رافعاً ويردنى ؟ أنا والله
أقوى من رافع ، أنا أصرعه .

وعلم بذلك رسول الله ﷺ فقال : تصارعاً فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه
ﷺ واشتركا فى القتال (٢) .

هكذا كان شباب الإسلام ، وهكذا كان صبيانهم يتنافسون على الموت ،
ويكونون لحرمانهم من الجهاد ، ويتصارعون ليثبت كل منهم قوته ليجيزه القائد
فى عداد المقاتلين .

لم يكن تنافسهم على المناصب والدرجات ، ولم يكن بكاؤهم وغضبهم
لتجنيدهم فى الجيش ، وأخذهم إلى ميادين القتال ، ولكن ليكتبوا بدمائهم
صفحات التاريخ الإسلامى المجيد الذى نتطاول به على الدنيا ، ونفخر به على
الأجيال .

جـ - دور الشيوخ :

لم يتقاعس الشيوخ من المسلمين عن الاشتراك فى القتال طلباً للراحة ،
ولم يقنعوا بما أباحه الله لهم من القعود رغبة فى الحياة ، ولكنهم بذلوا
شيخوختهم ، وضحووا براحتهم وانطلقوا من معقلهم لينضموا إلى الجيش
المحارب .

(١) مختصرة سيرة الرسول ص ٢٤٤ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٣ .

روى الحلبي أن رسول الله ﷺ خلف الإيمان — والد حذيفة — وثابت ابن وقش في الآطام من النساء والصبيان لأنهما كانا شيعين كبيرين ، فقال أحدهما لصاحبه : لا أبالك ما ننتظر ؟ فوالله إن بقي لواحد منا في عمره إلا طمء حمار — أى شيء يسير من العمر — أفلا نأخذ أسيفنا ، ثم نلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الشهادة .

فأخذا سيفيهما ، ثم خرجا حتى دخلا في الناس من جهة المشركين ، ولم يعلم المسلمون بهما ، فأما ثابت فقتله المشركون وأما الإيمان فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتلوه ولم يعرفوه (١) .

هذه صورة رائعة ونادرة في التاريخ ، قوم عذرهم الله تعالى ورفع عنهم فريضة الجهاد والتضحية بالنفس ، وتركهم رسول الله ﷺ في بيوتهم ، فلم ينكر عليهم قعودهم ، ولم يستنفرهم ليقاتلوا معه ، ومع ذلك أبت نفوسهم أن تخلد إلى الراحة واشتأزت قلوبهم أن يتركوا مع النساء والصبيان .

فقال أحدهما لصاحبه : أفلا نأخذ أسيفنا ، ونلحق برسول الله ﷺ لعل الله يرزقنا الشهادة ؟ ؟

ثم لا يقف الرجلان عند حد الكلام ، بل يحمل كل منهما سيفه ويمضى إلى عزمه ، مستقبلاً الموت بصدرة ، فيرزقهما الله الشهادة وهكذا صدق الله فصدقهما الله .

د — وحي النساء :

لم تكن المرأة بمعزل عن الأحداث التي تهم المسلمين ، وتتعلق بمصالح الدولة العامة ، ولكنها أسهمت في كل ميدان نستطيع أن تؤدي فيه دوراً بنصيب كبير .

ولم يكن الإسلام قط عقبة في وجه النساء المسلمات تحول بينهن وبين الإسهام فيما يقدرن عليه من الواجبات ولقد أسهمت المرأة المسلمة في بناء الدولة في السلم كما أسهمت في بنائها في الحرب ، ولقد اهتمت بمداواة الجرحى

(١) السيرة الحلية ص ٢٥٦ .

والإشراف على المرضى بقدر اهتمامها بتربية أبنائها وحقوق زوجها ، وكانت تحمل الماء على ظهرها إلى ميدان القتال لتسقى المحاربين كما كانت تحمله إلى بيتها لتقوم بشئونه من طبخ وري وتنظيف .

ولم يبخسها الإسلام حقاً ، ولم يهضمها شيئاً ، بل أعطاهما جزاءها كاملاً غير منقوص مقابل كل عمل صالح تقدمه في البيت أم في الميدان قال تعالى : ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ (١) .

وقال : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها شيئاً ﴾ (٢) .

ولم تكن مهمة المرأة المسلمة في الميدان قاصرة على مداواة الجرحى ، ومعالجة المرضى ، وسقى الظماء ، بل تعدت إلى حمل السلاح والقتال مع المقاتلين .

هذه أم أيمن رضي الله عنها تواجه في المدينة رجالاً من الذين تولوا يوم اللقاء ، فأخذت تحثو التراب في وجوههم ، وتقول لبعضهم : « هاك المغزل فاغزل به ، وهلم سيفك » (٣) .

ولم تقف أم أيمن عند هذا الحد بل ذهبت بنفسها إلى ميدان القتال ، وشوهدت وهي تتجول بين الصفوف تتفقد الجرحى وتسقيهم .

يقول الحلبي : « إن أم أيمن كانت في الجيش تسقى الجرحى وإن حجاب ابن العروة رمى بسهم ، فأصاب أم أيمن ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فدفع إلى سعد سهماً لا نصل له وقال : ارم به ، فوقع السهم في نحر حجاب ، فوقع مستلقياً حتى بدت عورته ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجره ، ثم قال : « استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته » (٤) .

(١) سورة غافر الآية ٤٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٤ .

(٣) السيرة الحلية ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

وهذه أم عمارة نسيية بنت كعب المازنية تشهد المعركة يوم أحد ،
فتسقى الناس في أول النهار ، وتقاتل آخره ، يقول ابن هشام : « وقاتلت أم
عمار ، نسيية بنت كعب المازنية يوم أحد » (١)

وذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري : أن أم سعد بنت سعد بن الربيع
كانت تقول : دخلت على أم عمار ، فقلت لها : يا خالة ، أخبريني خبرك ،
فقالت : خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء
فانتبهت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه ، والدولة والربح للمسلمين ،
فلما انتهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقامت أباشر القتال ، وأذب
عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس ، حتى خلصت الجراح إلى .

قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور ، فقلت : من
أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئة ، أقماه الله !

لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول : دلوني على محمد ،
فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع
رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة ، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ،
ولكن عدو الله كان عليه درعان (٢) .

وقد جرحني رضي الله عنها اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح ، وضربة
بسيف (٣) .

وروى مسلم أن عائشة وأم سليم رضي الله عنهما كانا يسقيان الناس
يفرغان من القرب في أفواه القوم (٤) .

وروى الحلبي أن عائشة رضي الله عنها خرجت في نسوة يستروحن خبز
الجيش ، فقابلت هند بنت حرام رضي الله عنها فقالت لها عائشة : جاء خبر
الجيش ؟

(١) سيرة بن هشام ج ٣ ص ٨١ .

(٢) سيرة بن هشام ج ٣ ص ٨١ - ٨٢ .

(٣) السيرة الحلية ج ٢ ص ٢٢ .

(٤) مختصر صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٠ .

فقالت : أما رسول الله ﷺ فصالح ، وكل مصيبة بعده جليل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

ثم قالت لها عائشة : فمن هؤلاء ؟؟

قالت : أخى عبد الله ، وابنى خلاد ، وزوجى عمرو بن الجموح ، وكانت قد حملتهم على بعير بعد استشهادهم تريد أن تدفنهم فى المدينة ، فبرك بهم البعير ، وصار كلما توجه إلى المدينة يبرك ، وان وجه إلى أرض أحد نزع ، فرجعت إلى النبى — ﷺ — وأخبرته ، فقال ان الجمل مأمور ، فقبرهم بأحد ، وقال — ﷺ — : ياهند مازالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن (١) .

ولم تكن أم سليم — رضى الله عنها — بأقل حماسا من أم عمار ، وأم أيمن وغيرهما من نساء المسلمين فكانت تخرج مع زوجها أى طلحة حاملة سلاحها لتدافع به عن نفسها .

روى ابن هشام قال : قال ابن اسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر ، أن رسول الله ﷺ التفت فرأى أم سليم بنت ملحان ، وكانت مع زوجها أبى طلحة ، وهى حازمة وسطها ببردها ، وانها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة ، ومعها جمل أبى طلحة وقد خشيت أن يعزها الجمل ، فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ، فقال لها رسول الله ﷺ : أم سليم ؟ قلت : نعم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل .

فقال رسول الله — ﷺ — أو يكفى الله يأأم سليم . قال : ومعها خنجر ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يأأم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته ، ان دنا منى أحد من المشركين بعجته به ، قال : يقول أبو طلحة : ألا تسمع يارسول الله ماتقول أم سليم الغميصاء — أى التى بعينها رمص — (٢) .

(١) السيرة الحلية ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٤٦ .

ولم تكتف أم عمارة نسيبة — رضى الله عنها — بالقتال مع رسول الله ﷺ — بل خرجت في حروب الردة تقاتل مع جيش المسلمين ضد مسلمة الكذاب ، ولم تهدأ حتى تيقنت من قتله .

يقول الحلبي : فعنها — أم عمارة — رضى الله عنها قالت يوم اليمامة : تقطعت يداى وأنا أريد قتل مسلمة ، وما كان لى ناهية — أى مانعة — حتى رأيت الخبيث مقتولاً ، وإذا ابني عبد الله بن زيد يمسح سيفه بشيابه ، فقلت : أقتلته ؟ قال : نعم ، فسجدت لله شكراً^(١) .

ومن هذا العرض السريع لهذه المقتطفات من السيرة النبوية العطرة ، نتبين أن الأمة الإسلامية كلها كانت معبأة للجهاد فى سبيل الله ، وأن كل فرد كان جندياً فى الجيش الإسلامى متأهباً للقتال فى أية لحظة من ليل أو نهار .

فلم يكذب المسلمون يسمعون الصيحة ، ولم يكذب منادى الجهاد ينادى : يا خيل الله اركبى ، حتى يهب المسلمون من كل مكان ميممين صوب المعركة ، ولو كانوا بين أحضان نسائهم .

وليس أدل على ذلك مما حدث من حنظلة الغسيل رضى الله عنه وهو حنظلة بن عامر ، وكان قد تزوج من جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول ، واستأذن رسول الله ﷺ أن يدخل بها فى ليلة غزوة أحد ، فأذن له ﷺ فلما صلى الصبح وعاد تعلق به ، فأجنب منها ، ثم نادى منادى الجهاد ، فخرج مع المجاهدين مائياً الصيحة دون أن يفتسل ، وقاتل قتالاً شديداً حتى استشهد رضى الله عنه .

وفيه يقول ﷺ : « رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة »^(٢) .

ولما سئلت زوجه جميلة قالت : خرج جنباً ، فقال ﷺ : لذلك غسلته الملائكة^(٣) .

(١) السورة الحلية ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٢) (٣ ، ٢) السورة الحلية ج ٢ ص ٢٥٤ .

تدريب الجيش

لم يكن لهذا الجيش المتأهب للقتال في أية لحظة أن يعيش هماً ، ولم يكن لهذه الأمة التي جيشت نفسها للدفاع عن هذا الدين أن تحيا حياة العيش والحمول ، ولم يكن للقائد العظيم ﷺ أن يركن إلى الدعة والراحة ، وقد أراحه الله بالهجرة إلى المدينة المنورة بعد عناء طويل صبر عليه هو وأصحابه بمكة المكرمة .

بل كان على الجيش أن يظل على ثقة بقيادته ، وأن يكون وثيق الصلة بالحياة العسكرية الجادة التي وهب لها نفسه وكان على الأمة أن تحيا حياة الجهد لتواجه المشكلات العويصة التي تنتظرها ، وكان على القيادة أن تستمر في تدريب الجيش والأخذ بيده إلى ميادين الكفاح والجهاد ليظل على علاقة وطيدة بالغاية التي خلق من أجلها .

كان على الجيش أن يظل يقظاً حريصاً حتى لا يباغت بأمر لا يحبه ، أو يفاجأ بحرب لم يكن يتوقعها ، وكان على الأمة كلها أن ترعى هذا الجيش بقلوبها ، وتحيطه بعنايتها ، وتمده بأفلاذ أكبادها وثمرات أفئدتها ، وكان على القيادة أن تستغل يقظة الجيش وحرصه ، فلا تتركه يتهاون أو يتبلد ، كما يستغل رعاية الأمة له ، وعنايتها به ، وتقيم صرح التعاون بين الجيش والأمة .

كان على الجيش أن يحدد غايته ، ويدرس الوسائل المؤدية إليها ، وعلى الأمة أن تعرف المكاسب التي تجنيها من تقوية الجيش وإمداده بالجند والمال ، وكان على القيادة أن توضح كل ذلك بدقة وعناية .

ولقد فعل رسول الله ﷺ فحدد الغاية « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »^(١) وبين الثمرة « لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة »^(٢) « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من

(١) مختصر صحيح مسلم ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) السورة لابن هشام ج ٢ ص ٦٢٧ .

فضله ، ويستبشرون بالدين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴿١﴾ وبين الوسائل المؤدية إلى ذلك بقوله : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » (٢) .

كذلك بين ﷺ واجب الأمة نحو الجيش وحشها على إمداده بالجند والمال بقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلُوبُهُمْ ضَالَّةٌ عَنْ صَلَاحِهَا سَاحِلَةٌ ﴾ (٣) يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿٤﴾ .

وبين أن الأمة إنما تكون قوية بجيشها عزيزة بقدرته على الدفاع عنها ، ذليلة بتقاعسه وعجزه « وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا سلط الله عليهم ذلاً لا ينزعه عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم » (٥) .

هكذا كانت القيادة في الإسلام حريصة على تدريب الجيش وقوته ، وهكذا وقفت الأمة الإسلامية من خلف قيادتها تشد أزرها ، وتمدها بتأييدها ، وهكذا كان الجيش الإسلامي خاضعاً لقيادته مؤتمراً بأوامرها ، واثقاً من إخلاصها وحسن تدبيرها .

وليس المراد بالتدريب صف الجنود لتعليمهم التشكيلات العسكرية ، وأخذهم بالتوجيهات الإدارية ، وتعويدهم المشية النظامية ، ليس المراد هذا ، لأنه لم يكن من مقتضيات الحياة العسكرية في ذلك لوقت ، وإنما المقصود هو العناية بتقوية الجند جسماً ليتحملوا الشدائد ، وعقلياً ليحيدوا التخطيط ، وروحياً لتحسن صلتهم بالله ، وليعظم توكلهم عليه ، ولنغرس في قلوبهم أن النصر من عند الله ، وأن العدد والعتاد ، والتدريب والاستعداد كلها وسائل فقط توصل إلى النصر بمشيئة الله عز وجل .

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ - ١٧١ .

(٢) رواه الترمذی وابن ماجه .

(٣) سورة التوبة الآية ١١١ .

(٤) سورة الصف الآيات ١٠ - ١١ .

(٥) رواه ابن حبان ، والطبرانی والحديث هنا مروي بالمعنى .

ولقد تولت القيادة الإسلامية تدريب الجيش على هذا النحو ، فحققت
الغاية المنشودة ، فكان الجيش الإسلامى أقوى الجيوش فى حينه ، كما كان
أعظمها صبراً ، وأشدّها تحملاً وأدقّها تخطيطاً ، وأكثرها ثقة بالله جل شأنه .

والمقصود بالجانب الجسمى هو اللياقة البدنية كما تعرف الآن ، إذ بغير
اللياقة البدنية لا يستطيع الجندى القيام بالمهام التى يكلف بها ، ولهذا أعفى الله
عز وجل أولى الضر من التجنيد فقال تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ،
ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ (١) .

والمقصود بالجانب العقلى هو تنمية المواهب العقلية فى الجنود حتى
لا يخدع من عدوه أولاً ، وحتى تتكون لديه القدرة على إحباط مخططات
أعدائه ثانياً ، ووضع الخطط اللازمة لكسب المعركة ثالثاً ، وإلى هذا يشير
صلى الله عليه وسلم بقوله الكريم : « الحرب خدعة » (٢) .

والمقصود بالجانب الروحى هو ربط الجنود بالله تعالى وتقوية الصلة به
سبحانه وتوثيق الاعتقاد بنصره لعباده المؤمنين ، وإمداده لهم بالعون والتأييد ،
وبذلك ترتفع معنويات الجنود ، ويستبسلون فى الجهاد ، ويظلمون على صلتهم
بربهم حتى فى أثناء المعركة ، وعندئذ يستحقون نصر الله ، وإلى هذا تشير
الآية الكريمة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً
لعلكم تفلحون ﴾ (٣) .

وبتربية هذه الجوانب الثلاثة فى الجنود نكون حقاً قد أعددناهم إعداداً
ممتازاً يستطيعون به — بعد توفيق الله — عز وجل أن يحرزوا النصر ، ويقهروا
العدو ، ويتغلبوا على العقبات .

أ — التدريب الجسمى :

لقد اهتمت القيادة الإسلامية بتدريب الجيش تدريباً جسمى ، لأنها
تعرف أن اللياقة البدنية ، والقوة الجسمية ذات أهمية كبيرة فى حياة الجيوش ،

(١) سورة الفتح الآية ١٧ .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٥ .

لهذا أبرزت معاملها ، ورسمت الخطط المؤدية إلى تحصيلها ، فأمرت بتعليم الرمي ، وحذرت من إهماله أو نسيانه وحثت على ركوب الخيل وتعلم السباحة ، وأقامت مباريات السباق بين الجنود مشاة وركبانا ، وأقرت المصارعة كمبدأ عام لإظهار القوة وتحصيلها .

أما الرمي فيقول فيه ﷺ : « من علم الرمي ثم تركه ، فليس منا » (١) .

ومر ﷺ على نفر ينتضلون فقال : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان فأمسك الآخرون عن الرمي ، فقال رسول الله : ما لكم لا ترمون ؟ فقالوا : كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال ﷺ : ارموا وأنا معكم كلكم » (٢) .

ولما نزلت الآية الكريمة ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ صعد ﷺ المنبر ، وتلا الآية ، ثم قال : ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي (٣) .

ولا شك أن الرمي يقتضى من الرامى أن يكون حاد البصر حتى يستطيع تحديد هدفه ، قوى الساعد ، حتى يمكنه تسديد رمية ، شجاعاً حتى يستطيع مواجهة أعدائه وبهذا يكون تعلم الرمي تدريباً لجميع أعضاء الجسم وتقوية لعضلاته .

ولقد كان ﷺ حريصاً على أن يظهر المسلمون بالقوة التى تهرب أعداءهم ، حتى إنه فى عمرة القضاء لما قال المشركون : إن أصحاب محمد أنهكتهم حمى يثرب ، وسمع ﷺ مقالتهم ، خشى إن هو طاف مع أصحابه فى خشوع واطمئنان أن يستقر هذا المعنى فى نفوسهم ، ويبرئهم على المسلمين ، فأمر أصحابه أن يخرجوا أذرعتهم اليمنى من الأردية ، ويجمعوا طرفى الرداء على أكتافهم اليسرى ، ويرملوا أى يقاربوا بين الخطى مع هزة عنيفة فى الجسم ، وقال ﷺ : « رحم الله امرأ أرى القوم قوة من نفسه » (٤) .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى .

(٣) تفسير البهزاوى للآية وكذلك الشوكالى وكذلك جاء فى صحيح مسلم .

(٤) الحديث مروي بالمعنى وأصله فى سورة ابن هشام ج ٣ ص ٢٧١ .

وأما ركوب الخيل فإنه فروسية ومهارة يكسب صاحبه قوة ورهبة ، وتمكن الفارس من توجيه المعركة إلى صفه بنجاح ، فيحرز النصر ، وينزل الهزائم بأعدائه ، لهذا كان ﷺ يأمر به ، حيث يقول : « فارموا واركبوا » (١) .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « علموا أولادكم السباحة والرمية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » .

وكان ﷺ ينهى عن اللهو ، ويحذر منه ، ويستثنى ثلاثاً : « تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته لزوجته ولهوه بأسهمه » (٢) .

والسباحة عامل مهم من عوامل تقوية الجيش ، وبخاصة في المعارك البحرية ، ولقد خاضها المسلمون كثيراً وبنجاح باهر ، وكان لهم أسطول قوى في عهد بنى أمية ، هزموا به الروم في معركة ذات الصواري ، وفتحوا به قبرص ، وحاصروا القسطنطينية ، واستولوا على جزر الروم .

وفي عهد الأغالبة فتحوا أقریطش « كريت » واستولوا على صقلية ، وهاجموا أوستيا ميناء روما حتى إن البابا يوحنا الثامن رأى إنقاذ روما بدفع الجزية لمدة عامين للأغالبة كما احتل الأسطول العربى فى الأندلس ساحل بروفانس جنوب فرنسا وجعلها قاعدة هامة لمهاجمة مدن نهر الراين .

وبهذا أثبت الجيش الإسلامى مهارة فائقة ومبكرة فى خوض المعارك البحرية مما أذهب أعداءهم ، واضطر ملوك وأمراء الدول الأوربية إلى الاتصال بالخلفاء يطلبون المهادنة وكف الغارات عن بلادهم (٣) .

ولقد أصبحت السباحة من أهم التدريبات التى تعنى بها الجيوش فى العصر الحديث ، وجعلوا لها فرقاً خاصة تعرف باسم « الضفادع البشرية » وهذه الفرق تقوم بدور هام وخطير فى إحراز النصر وإنزال الهزائم بالأعداء .

(١) رواه أبو داود والنسائى .

(٢) رواه أصحاب السنن .

(٣) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط للدكتور العدوى .

وعندما يأمر الإسلام بتعلم الرمي وإجادته ، وركوب الخيل والمهارة فيه لا يقصد الوقوف عند حد الرمي بالسهم ، والاكتفاء بتعلم ركوب الخيل ، بل يقصد تعلم الرمي مطلقاً بالمسدس أو البندقية وبالمدفع والصاروخ ، وأن تتطور مع الزمان ، ولا نقف لتتفرج وعدونا يخترع كل يوم الجديد ، ويتفوق علينا بالنار والحديد .

كما أن المقصود بركوب الخيل ركوب كل ما من شأنه أن يحقق التفوق على الأعداء كركوب السيارات والمصفحات والدبابات والطائرات إلى غير ذلك ، والوثب على الخيل ومن فوقها رمز واضح لفرق المظليين ، ومهمتهم العظيمة التي يضطلعون بها .

ولقد كان ﷺ يقيم مباريات للسباق بين أصحابه ، تارة على الخيل والجمال ، وتارة على الأقدام .

ففى الصحيحين من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : « سابق رسول الله ﷺ بين الخيل فأرسلت التي أضمرت منها ، وأمدّها الحفياء إلى ثنية الوداع ، والتي لم تضمر أمدّها ثنية الوداع إلى مسجد بنى رزيق » (١) .

قال البخارى : قال سفيان : من الحفياء إلى ثنية الوداع خمسة أميال أو ستة ، ومن ثنية الوداع إلى مسجد بنى رزيق ميل .

وفى البخارى أيضاً : كانت العضباء ناقة رسول الله ﷺ لا تسبق فجاء أعرابى على قعود له فسابقها فسبقها الأعرابى ، وكان ذلك شق على أصحاب النبی ﷺ فقال : « حق على الله ألا يرتفع شيء إلا وضعه » (٢) .

وأما المسابقة على الأقدام فقد فعلها ﷺ بنفسه فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « سابقنى النبی ﷺ فسبقته ، فلبشنا حتى إذا أرهقنى اللحم سابقنى فسبقنى ، فقال : « هذه بتلك » (٣) .

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح البخارى .

(٣) مسند الإمام أحمد .

كذلك تسابق الصحابة رضوان الله عليهم بين يديه ، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : (بينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبداً ، فجعل يقول : ألا مسابق إلى المدينة ، هل من مسابق ؟ فقلت : أما تكرم كريماً ، وتهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسول الله ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ذرني أسابق الرجل ، فقال : إن شئت ، فنسبته إلى المدينة «(١) .

وأقر الإسلام المصارعة ، وباشرها ﷺ بنفسه أيضاً ، فقد صارع ركانة ، وكان رجلاً قوياً شديداً فصرعه النبي ﷺ وقيل إن ذلك كان سبب إسلامه (٢) .

قال أبو داود : حدثنا موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ كان بالبطحاء فأتى عليه يزيد بن ركانة بن يزيد ومعه أعتر له ، فقال : يا محمد هل لك أن تصارعني ؟ فقال : ما تسبقني ؟ فقال : شاة من غنم .

فصارعه فصرعه ، فأخذ شاة ، فقال ركانة : فهل لك في العودة ؟ فقال : ما تسبقني ؟ قال : أخرى . ذكر ذلك مراراً .

فقال يا محمد ، والله ما وضع أحد جنبي إلى الأرض ، وما أنت بالذي تصرعني ، فأسلم ، ورد عليه رسول الله ﷺ غنمه (٣) .

وقال ابن القيم : قال أبو الشيخ الأصبهاني : حدثنا عبد الله ابن محمد بن زكريا أسنده إلى عبد الله بن الحارث ، قال : صارع النبي ﷺ أبا ركانة في الجاهلية وكان شديداً فقال : شاة بشاة ، فصرعه النبي ﷺ فقال أبو ركانة : عاودني في أخرى ، فصرعه النبي ﷺ فقال : عاودني في أخرى ، فعاوده فصرعه النبي ﷺ فقال أبو ركانة : ماذا أقول لأهلي ؟ شاة أكلها الذئب ، وشاة نشزت ، فما أقول للثالثة ؟ فقال النبي ﷺ : « ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك ونغرملك ، خذ غنمك » (٤) .

(١) صحيح مسلم .

(٢) رسالة الفروية الشرعية لابن القيم ص ٣ .

(٣) سنن أبي داود كتاب المراسيل .

(٤) رسالة الفروية الشرعية ص ٣٣ .

ومن هذ نعلم أن الإسلام حرص على تربية الجنود تربية جسمية ، تضمن لهم أسباب القوة التى تردع أعداءهم ، وترهب من تحدته نفسه بالوقوف فى طريقهم ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (١) .

ب — التدريب العقلى :

قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (٢) أجمع المفسرون على أن أعظم خصال التكريم إنما هو العقل ، وبينوا سبب ذلك فى إسهاب ، والحقيقة أن العقل هو أئمن نعم الله على الإنسان ، وهو الميزة التى يستحق بها هذا التكريم وتلك المكانة الرفيعة ، لهذا اهتم الإسلام به ، ووضع له كل وسائل النمو والتزكية ، وحث الناس على ذلك وأمرهم به ، واستعمل فى ذلك وسائل متنوعة ، ليرتقى الإنسان إلى أعلى درجات الرق الحضارى ومن أهم الوسائل التى استعملها الإسلام لتنمية المواهب العقلية ما يلى :

١ — التأمل فى الكون .

٢ — التأمل فى النفس .

٣ — ضرب الأمثلة الحسية للمعقولات .

التأمل فى الكون :

الكون هو الكتاب المفتوح لكل متأمل يريد أن يستطلع أسرار الحقائق التى خفيت على الغافلين ، وهو الوسيلة التى يجد فيها العقل البشرى مسرحاً ومراحاً لجولاته التى لا تنتهى ، ولا تقف عند حد .

لهذا أمر الله عز وجل بالنظر والتأمل فى الآيات الكونية قال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ (٣) وهذا النظر يفتح للعقل آفاقاً رحبة تشبع نهمه ، حيث يجد دقة الإتقان فى تنظيم النجوم ومداراتها ، والكواكب

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

(٣) يونس ١٠١ .

وأفلاكها ، والأجواء المترامية وما تظمه بين جوانحها من السحب والطيور على اختلاف أشكالها وغرائب طبائعها ، وهنا يقف العقل وقفة التأمل الفاحص والمدقق الباحث ، كيف يتجمع السحاب ويتراكم ، فيسقط المطر ؟ كيف تسبح هذه الطيور في الجو صافات ويقبضن ؟ وكيف تحفض أجنحتها التي تريد الدوران إلى جهتها ؟ بل كيف تطأطئ ذيلها ، لتهدئ من سرعتها ، فتمكن من الدوران ؟

إن هذا الإبداع في تنظيم هذا الكون الرحب الممتد إلى ما وراء العقل ، الذى تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (١) وهذا التشييد والتنسيق الذى أحكمته قدرة الله عز وجل ووضحته الآيات البينات : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا ، مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ؟ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ، وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ، وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ (٢) .

وهذه الدقة المتناهية في تقدير الأفلاك ودورانها ، وتدبير منازلها وأبراجها الذى أبدعته حكمة الله تبارك وتعالى وبينته الآية المباركة : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ، وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّعَلَّمُوا عُبُدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ولقد أدهشت هذه الدقة علماء الفلك في العصر الحديث حتى عبر عنها أحدهم بقوله : « إننا لو أطلقنا ثلاث ذبابات : واحدة في أمريكا والثانية في أفريقيا والثالثة في آسيا يكون احتمال اصطدام الذبابات الثلاث أقرب إلى العقل من احتمال اصطدام كوكبين في الفضاء » .

ثم ينتقل النظر من السماء إلى الأرض ، فيتأمل ما فيها ومن عليها فينظر إلى الجبال كيف نصبت ؟ ووزعت هذا التوزيع المتكافئ على جهات الأرض المختلفة ، وفي هذا النسق العجيب ، وهذه الفجاج كيف شقت ؟ ، كيف

(١) الذاريات ٤٧ .

(٢) الملك ٣ - ٥ .

(٣) يونس ٥ .

أصبحت سبلاً ممهدة يسلكها الناس في ترحالهم وأسفارهم ؟ وهذه المياه كيف انسابت ، فأحييت موات الأرض ، وأخصبت النبات وسقت البهائم ، وأفادت الناس ، وهذه المزروعات كيف نمت واخضرت ؟ وكيف تلونت كل ثمرة منها بلونها الرائع الأخاذ ؟ وكيف حصلت كل ثمرة منها على طعمها الخاص بها ؟

وهذه الحيوانات ، وما توحى به أشكالها وأحجامها وطبائعها وغرائزها وكيفية تكاثرها ، وطرق تعاملها ، والصورة التي خلقت عليها ، كل هذا التأمل تلزمننا به الآيات الكريمات وبخشنا عليه الإسلام الخفيف ، يقول تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (١) .

إن هذا التأمل في أسرار الكون وعجائبه ، لطبع النفس على الابتكار ويفتح العقل عن كل عجيب وغريب ، ويوحى للإنسان بالإبداع والاختراع .

ولقد حقق المسلمون الأولون بهذا التأمل وذلك النظر ، وفي وقت مبكر من حياة الدولة الإسلامية ما لم تستطع العقول إدراكه في حينه ، وما استطاعت أن تصل إليه إلا في وقت متأخر في هذا العصر الذي نعيش فيه ، وتاريخ العلوم يثبت ذلك للمسلمين بكل اعتزاز وفخر (٢) .

ولقد بلغ اهتمام الإسلام بالعقل البشري ، وحرصه على تنميته وتطويره ، وحسه على أعماله وعدم تعطيله ، أن هدد رسول الله ﷺ كل من يمر بآيات الكون ، ولم يحاول الاستفادة منها والنظر إليها والتفكير فيها ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار ﴾ (٣) عندئذ قال ﷺ : « ويل لمن يقرأ هذه الآيات ولم يتفكر فيها » (٤) .

(١) الفاشية ١٧ - ٢٠ .

(٢) راجع كتاب العلم عند العرب للكاتب الإيطالي الدوميلي .

(٣) آل عمران ١٩٠ - ١٩١ .

(٤) فتح القدير ج ١ ص ٤١٢ .

التأمل في النفس :

والنفس البشرية هي المجال الطبيعي للتفكير الإنساني ، ولقد وهبنا الله العقل لنفكر به وندرك وإذا كنا نفكر به فيما حولنا فأولى بنا أن نفكر به في أنفسنا ، في خلقنا ، فيما تنطوى عليه طبائعنا وغرائزنا ، وفيما يحتويه هذا الجسم من عجائب وأسرار ، إن الإنسان المتأمل ليندهش ويحار ، وهو يرى بعينه هذه الأعضاء التي تكون منها جسمه ، كيف توزعت هذا التوزيع الدقيق ، بحيث لو وضع عضو مكان عضو فقد وظيفته وقيمته ، فالعين لا يمكن أن تحمل محل الأذن ، والأنف يستحيل أن يكون يداً أو رجلاً .

ثم هذه الأجهزة الداخلية : الجهاز العصبي ، والجهاز الهضمي ، والجهاز التناسلي وغيرها من الأجهزة التي تسير بدقة تدل على عظمة الخالق المبدع سبحانه وتعالى كيف تؤدي هذه الأجهزة وظائفها ؟ وكيف رتبت هذا الترتيب في هذا الحيز من جسم الإنسان مع كثرتها وتعدد مهماتها ؟ ومن الذي أوحى إلى الجهاز العصبي أن يترأس كل هذه الأجهزة ويسيطر عليها ، فلا تعمل عملاً إلا بإشارة منه .

ثم هذه الروح تلك العجيبة التي لا يزال العالم رغم هذا التقدم العلمي مبهور الأنفاس يلهث دائماً ليقف على كنهها ، فأعجزته الحيلة وعاد حتى دون أن يجد خفي حنين يوارى بهما إفلاسه .

يقول المرحوم سيد قطب : « كل فرد من هذا الجنس عالم وحده ومرتبة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور ، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً لا في شكله وملاحظه ، ولا في عقله ومداركه ، ولا في روحه ومشاعره ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره ، ففي هذا المتحف الإلهي العجيب الذي يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة فريدة لا تتكرر ، يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر كما لا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى في هذه الأرض في جميع العصور !

وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة البصر ، تراه العيون :

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾ وما تراه العين من عجائبه يشير إلى المغيّب المكنون (١) .

إن الإنسان ليندهش فعلاً وهو يقف أمام هذه الأسرار يحسها في نفسه ، ويلمس دقتها في تصرفاته ، ويشعر بها ماثلة أمام بصره في كل نفس من أنفاسه ، فلا يملك حينئذ إلا أن يختر ساجداً لعظمة المبدع ، ويتوصل عن طريق هذا التأمل إلى التوحيد الخالص لله جل علاه فيمحض طاعته له ، ويخلص له في كل أموره ، ويوجه وجهه إليه ، ويسلم أمره له ، فيرضى بقضائه وقدره ويقف عند أمره ونهيه ، وتلك هي العبودية المخلصة ، وتلك هي الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان .

ولهذا حثنا سبحانه على التأمل في النفس لإدراك تلك الأسرار أو بعضها ، فقال عز من قائل : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (٢) .

ضرب الأمثلة الحسية للمعقولات :

من المعلوم أن هناك أموراً عقلية لا يستطيع الإنسان إدراكها لأول وهلة ، قد يكون ذلك لقصور في العقل البشري ، وقد يكون ذلك ، لأن الأمور المتحدّث عنها أمور لا تدخل تحت إدراك الحواس وهي المعروفة بالأمور الغيبية .

إن عدم إدراك هذه الأمور لأحد السببين السابقين لا يبرر مطلقاً تجاهلها ، وعدم التكلم عنها ، بل يجب على المرنى تقريب هذه الأمور إلى عقل الإنسان حتى يتمكن من تصورها ، وذلك إنما يكون بضرب المثل المحسوسة المشاهدة لهذه الأمور العقلية الصرف .

ولا شك أن العقل عندما يدرك هذه المحسوسات ويتأملها يدرك إمكانية تصور هذه الأمور الغيبية ، كما يدرك أنها أمور جائزة الحصول ، ولا مانع من وقوعها ، عندئذ يتفتق الذهن لإدراك معقولات لم يكن له أن يتصورها ،

(١) في ظلال القرآن تفسير الآية .

(٢) الذاريات ٢١ .

لولا ضرب هذه الأمثلة الحسية وبذلك يحصل العقل معلومات جديدة تزيد في نموه ، وتؤهله للوظيفة التي خلق من أجلها .

أمثلة :

من ذلك بيان مكانة الرسول ﷺ ومنزلته من الرسل السابقين له صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

لو أردنا أن نوضح ذلك بقولنا : إنها مكانة رفيعة ، ومرتبة سامقة ، ومنزلة لا تتم الرسالات إلا بها لما أوضحنا المقصود ولم نبلي بقولنا المراد ، ولذلك أضرب رسول الله ﷺ عن ذلك كله — وهو الذى أوتى جوامع الكلم — وضرب لنا مثلاً أدر كنا عن طريقه تلك المكانة من غير معاناة ولا كد فكر فقال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (١) .

عندئذ يدرك العقل مكانته ﷺ من الأنبياء قبله من غير عناء ، ولا تعب ، حيث يرى أمامه قصراً شامخاً رائعاً جميلاً ، تنقصه لبنة ليتم ويبر ، فإذا وضعت هذه اللبنة فى مكانها لا شك أنه يزداد حسناً وبهاء ، ويتم رونقه ، وتظهر أبهته .

ومن ذلك البعث والنشور ، وإخراج الناس أحياء من القبور بعد موت طال أمده ، وبعد زمنه ، فالعقل البشرى يعجز عن تصور هذه الحقيقة حيث لم تدركها العقول فيسرع إلى التكذيب .

ولقد حكى القرآن هذا الموقف من المشركين الذين عجزت عقولهم عن تصور البعث والنشور ، فقال تعالى : ﴿ وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (٢) .

(١) صحيح مسلم .

(٢) الجاثية ٢٤ .

ثم يمعنون في الإنكار ، ويتحدون تحدياً معجزاً في تصورهم الفاسد فيقولون : ﴿ ائتوا بآياتنا إن كنتم صادقين ﴾ (١) .

ولقد عرض القرآن هذا الإمعان في الإنكار بأسلوب يدل بوضوح على عدم تصورهم للبعث وتصديقهم به حيث يقول جل شأنه : ﴿ وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟ أفترى على الله كذباً أم به حجة ؟ ﴾ (٢) .

إن تصور إحياء الناس بعد أن صاروا رماداً تذروه الرياح ، وتطؤه الأقدام ، صعب وعسير ، وإن العقل البشرى قاصر عن إدراك هذا الهول الخطير ، فهولا يصدق إن الناس بعد مضي آلاف السنين ، وبعد أن طال عليهم الأمد ، وبعد أن صاروا تراباً ، بعد كل هذا يبعثون ، ويخرجون من قبورهم أحياء كما كانوا ، ثم يحاسبون على كل ما قدمت أيديهم ، ذلك رجع بعيد .

إن القرآن الكريم قد ناقش هذا الموضوع مع أصحاب هذه العقول التي لم تدرك تلك الحقيقة بأساليب شتى : فمرة عرضها بطريق القياس المنطقي ﴿ قل يحياها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٣) .

ومرة يعرضها بطريق القياس الأولي ﴿ أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ (٤) .

فإن الله عز وجل في الآية الأولى يقول لهم : إن الذى أوجدكم من العدم ، قادر على أن يعيدكم بعد موتكم ، وهو جواب مقنع لذوى العقول الفطنة والحواس المرهفة .

ويقول لهم في الآية الثانية : إن الذى خلق السماوات والأرض مع عظمها وضخامتها قادر على إحياء الموتى الذين هم أقل شأنًا من هذه المخلوقات الهائلة ، وهو جواب مقنع لمن يحاول الفهم ويتكلف الإدراك .

(١) الجاثية ٢٥ .

(٢) سبأ ٧ - ٨ .

(٣) سورة يس ٧٩ .

(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٣ .

ولكن العقول لا زالت متبلدة ، والقلوب مغلقة موصدة فلا حيلة إذن إلا أن يضرب الله الأمثال ، فتتحرك العقول نحو إدراك الأمر المستبعد ، فيقول جلا علاه : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون ﴾ (١) .

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرأ بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ (٢) .

هكذا يحرك الله القلوب لإدراك الغيبات ، ويلفت الأنظار إلى المحسوسات المشاهدة ، التى لا تستطيع العين إنكارها ، ولا تطيق العقول جحودها .

إن الشجر الأخضر غير قابل للاحتراق ، ولهذا لا يستعمله الناس فى الوقود إلا بعد أن يجف وييس ، ولكن الله عزت قدرته قد خالف مألوف الناس فى ذلك ليبرهن على قدرته فجعل بين أيدى الناس نوعين من الشجر يقدحان الشرر وهما أخضران ، وهما : الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار ، هذان النوعان إذا أخذ من كل منهما عود أخضر ، وضرب بالآخر ، انفدحت منهما النار وهما نديان رطبان (٣) .

وهنا تقوم الحجة على القوم ، فإن الذى يخرج النار من الشجر الذى لا يشتعل قادر على إخراج الموتى أحياء من قبورهم .

وهذه الأرض الميتة التى يراها الناس بأعينهم قاحلة ماحلة لا زرع ولا ضرع ، ينزل عليها المطر فإذا هى تربو وتهتز ، ثم تنشق عن نبات أخضر يانع .

إن الناس جميعاً العالم والجاهل والصغير والكبير والرجل والمرأة الجميع يشاهدون هذا المنظر ، وليس البعث وإحياء الناس إلا نوعاً من هذا الإخراج ﴿ كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ (٤)

(١) سورة يس ٨٠ .

(٢) سورة الأعراف ٥٧ .

(٣) فتح القدير ج ٤ ص ٣٨٣ (٤) سورة الأعراف ٥٧ .

كذلك يرى الإسلام العقول في البحث والمناظرة الحرة ، فتنمو نمواً طبيعياً دون تعسف أو قسر ، فيعرض عليها الآيات الكونية ، ويوجهها إلى التبصر في النفس الإنسانية ، ثم يخاطبها بالمشاهد الملموس حتى إذا بلغت رشدها ، واستوت على أمدّها ، ناقشها مناقشة الحضيف الأريب ، وعرض عليها الفكرة في ثوب ، ناصع قشيب ، فيقول جل من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لَنُبَيِّنَ لَكُمْ ، ونُقِرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هائمةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ﴾ (١) .

تلك هي قصة البشرية برمتها ، ملايين السنين بطوتها هذه الآيات البيّنات في كلمات ، دون أن تهمل شيئاً منها أو تقصر في تفصيل حادث من أحداثها .

إن هذا النداء الذي افتتحت به الآيات إيذان بإعلان هام تلقت إليه الأنظار ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ إنه نداء للبشرية كلها ودعوة لها أن تصغي إلى قصتها ، وتستمع إلى حكايتها .

وهنا تستبعد ما أنكروه من عدم البعث ، وتسرد الأدلة على صحة الدعوى التي طلبت منهم الإيمان بها ، فتقول : إذا كنتم في شك من قدرتنا على إحيائكم بعد الموت ، فتعالوا واسمعوا ما تلى عليكم لعلكم تقتنعون بحقيقة ما تنكرون .

إننا خلقناكم — خلقنا أباكم آدم — من تراب ، وها أنتم أولاء أبناءه أحياء تدبون على وجه الأرض ، وتتخاصمون ، وتمترونها ، هل في ذلك شك ؟ فلماذا تستبعدون أن نعيد خلقكم من تراب مرة أخرى ، والعود أهون من البدء ؟؟ ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ﴾ (٢) .

(١) سورة الحج ٥ - ٧ .

(٢) سورة الروم ٢٧ .

ثم تروى لنا الآية قصة الجنين في بطن أمه ، والأطوار التي يمر بها ، وهو بعد ذلك كله موكول أمره إلى الله ، إن شاء أقره في الرحم حتى يخرج إلى الحياة طفلاً ، ثم يبلغ أشده ، وعندئذ يشارك في بناء مجتمع فاضل ، أو يعمل على إفساد الحياة . ويكون عقبة في بلوغها أمدّها ، وإن شاء أمر الرحم أن يلفظه ، فينزل سقطاً ، وتنتهى قصته عند هذا الحد .

وهنا تنتقل بنا الآية في سلسلة تعجز البشر متظاهرين وسهولة يدركها كل من له عقل ، وروعة تسلب لب الأديب الخاذق حيث تنقلنا من أطوار البشر إلى أطوار النبات ، دون أن يختل النسق أو يختلف الموضوع ﴿ وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

إنها تذكر الدليل الثانى على أحقية البعث وكيونته ، وهو دليل حسى ملموس ، العين تشاهد ، والقلب يتفتح ، والعقل يتدبر ويعى ، وعندئذ يطرح النتائج البديهية التى يجب التصديق بها بعد ذكر تلك الأدلة .

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .

الله هو الحق فلا يقول إلا حقاً ، وهو يحيى الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها ، وهو على كل شيء قدير ، لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف يعجزه إخراجكم من بطن الأرض بعد أن صرتم تراباً ، وقد أخرجكم من بطون أمهاتكم بشراً سوياً بعد أن كنتم نطفة من ماء مهين ؟

والساعة آتية لا ريب فيها لتتحقق عدالة الله فى خلقه ، ويأخذ كل إنسان حقه ، إذ ليس من العدل أن يسوى الموت بين صالح وطالح ، وبار وفاجر ، فلا بد أذن من فرصة ينال فيها كل إنسان جزاء ما قدمت يداه ، وتلك هى الساعة التى لا ريب فيها .

وإذا كان لابد من الفرصة ، وكانت الفرصة هى الساعة ، والمقصود منها هو تحقيق العدالة بين الناس ، كان لابد من بعث هؤلاء الناس من قبورهم ، لتجد كل نفس ماعملت محضراً : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن

يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴿١﴾ .

ج - التدريب الروحي :

وهذا الجانب من التربية مهم جدا بالنسبة للجيش الإسلامى وان كان لاعتهم به الدول التى تعتمد على الاسلحة والتدريب وعدد الجنود ، لان ذلك هو الغاية التى تحتهد فى تحصيلها ، وتسعى دائبة لتوفيرها ، وهى لهذا تعتبر هذا الجانب ملهامة لادخل له فى إعداد الجيوش وتدريبها ، وانتصارها على أعدائها .

ولكننا نعتقد أن هذا الجانب هو سر قوتنا ، ووسيلة تفوقنا وأن ماعداه وسائل لاتدفع ضرا ، ولا تجلب نصرا ، وأن النصر من عند الله ﴿ وما النصر إلا من عند الله ان الله عزيز حكيم ﴾ (٢) .

وهذا الجانب من التربية هو الفارق الأساسى بين الجيش الإسلامى وغيره من الجيوش ، بل هو العامل الذى حقق به الجيش الإسلامى تلك الانتصارات التى بهرت العالم ، وأدهشت المفكرين ، وتركت القادة العسكريين فى حيرة ، لا يدرون بماذا يعللون هزيمة القوة أمام الضعف وفشل الكثرة وهى تواجه القلة ، واندحار التدريب والعتاد أمام الوسائل البدائية ؟؟؟

تلك هى الخصيصة التى تميز بها الجيش الإسلامى ، وتلك هى أهم وسائله لتحقيق انتصاراته ، ولأجل هذا حث القرآن الكريم والسنة المطهرة على الاهتمام بهذا الجانب من التربية ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ (٣) .

وهذه التربية الروحية تتحقق بأمر بيننا الله — سبحانه وتعالى — فى القرآن الكريم ، كما حث عليها رسول الله — ﷺ — فى السنة الشريفة وأول هذه الأمور وأهمها الفرائض التى فرضها الله على عباده ، من صلاة وصيام وزكاة وحج (٤) .

(١) سورة الزلزلة ٧ — ٨ .

(٢) سورة الأنفال ١٠ .

(٣) سورة الأنفال ٤٥ .

(٤) راجع كتابنا التربية الإسلامية وأثرها فى تكوين الشخصية .

ولا شك أن أداء هذه الفرائض على الوجه الذى شرعه الله — عز وجل — وبالطريقة التى علمنا إياها رسول الله ﷺ — يحقق الصلة بين العبد وربّه ، ويدّيم العلاقة بين الناس وخالقهم ، وذلك هو سر التربية وروحها .

ثم يأتى دور النوافل ، وهى من أهم القربات إلى الله — عز وجل — ومن النوافل قيام الليل ، وصلاة الضحى ، والسنن الراتبة للصلوات ، وصيام التطوع كصيام يوم عرفه وعاشوراء والإثنين والخميس أو ثلاثة أيام من كل شهر ، ومنها تلاوة القرآن وتدبره ، وذكر الله على كل حال .

والآية الكريمة جمعت ذلك كله ﴿ اَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (١) .

وفى الحديث القدسى : « ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » (٢) .

وأهم هذه النوافل للجنود ، وبخاصة أثناء المعارك ذكر الله تبارك وتعالى لأن الله أمر به جنده حين اللقاء ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

ذكر الله :

وذكر الله تعالى من أهم وسائل التربية الروحية ، وهو الصلة التى يجب ألا تنقطع بين العبد وربّه ، فالمؤمن يجب أن يكون لسانه دائماً رطباً بذكر الله ، ولهذا وضع رسول الله ﷺ برنامجاً يشغل به وقت المسلم كله ، يبدأ من استيقاظه وينتهى بنومه ، وهو بهذا يملأ فراغ المسلم ، بحيث لا تمر به لحظة

(١) سورة العنكبوت ٤٥ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) سورة الأنفال ٤٥ .

إلا وهو مشغول بذكر الله عز وجل وهذا هو معنى الحديث الشريف ،
« ليكن لسانك رطباً بذكر الله » (١) .

وهذا الذكر من السنن العملية التي ينبغي للمسلم ألا يفرط فيها ، وأن
يأخذ نفسه بها ، ويتدبرها عند القيام بها ، حتى يظل على ثقة بربه موصول
القلب بحبه ، مستمداً منه عوناً ورشده .

وهاك البرنامج الذي وضعه رسول الله ﷺ :

دعاء الاستيقاظ ، الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور (٢)

دعاء دخول الخلاء : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث (٣) .

وعند الخروج منه : الحمد لله الذي أذاقني لذته ، وأبقى في قوته ، ودفع
عني أذاه (٤) .

وعند ابتداء الوضوء يقول : اللهم اغفر لي ذنبي ، ووسع لي في داري
وبارك لي في رزقي (٥) .

وعند الانتهاء منه يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين ، واجعلني من
المتطهرين (٦) .

وعند لبس الثياب يقول : اللهم إني أسألك من خير ما خيره وخير ما هو له ،
وأعوذ بك من شره ، وشر ما هو له (٧) .

فإذا خرج من بيته يقول : بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة
إلا بالله (٨) .

(١) مسلم .

(٢) رواه الطبراني .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) رواه الطبراني .

(٥) رواه النسائي .

(٦) رواه مسلم والترمذي .

(٧) رواه ابن السني .

(٨) رواه النسائي .

وإذا توجه إلى المسجد يقول : اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي بصري نورا وفي سمعي نورا ، وعن يميني نورا ، وعن يساري نورا ، وفوق نورا وتحتي نورا ، وأمامي نورا وخلفي نورا ، واجعل لي نورا^(١) .

فإذا دخل المسجد يقول : أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم ، بسم الله اللهم صل على محمد وعلى آله وسلم ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك^(٢) .

وعندما يسمع المؤذن يقول مثلما يقول ، حتى إذا انتهى قال : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته^(٣) .

فإذا انتهى من صلاته يسبح الله ثلاثاً وثلاثين ، ويحمده كذلك ويكبره كذلك ، ثم يقول : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير^(٤) ويقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك^(٥) .

فإذا انتهى من مجلسه ، وأراد القيام ، يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك^(٦) .

وعند خروجه من المسجد يقول : بسم الله ، اللهم صل على محمد وعلى آله وسلم ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك^(٧) .

فإذا أراد العودة إلى البيت يقول عند دخوله : اللهم إني أسألك خير المولى ، وخير المخرج ، باسم الله ولجنا ، وباسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم يسلم على أهله^(٨) .

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه أبو داود .

(٦) رواه أبو داود .

(٧) رواه مسلم .

(٨) رواه أبو داود .

فإذا جلس ليأكل يقول : اللهم بارك فيما رزقنا ، وقنا عذاب النار ،
بسم الله^(١) فإذا نسي أن يذكر الله في أول الطعام فليقل بسم الله أوله
وآخره^(١) .

وعندما يفرغ من الطعام يقول : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا
مسلمين^(٢) وإذا قدم له أحد طعاماً يدعو له بعد انتهاء الطعام ويقول: أفطر
عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة^(٤) .

وهكذا يظل المسلم على صلة وثيقة بربه في جميع أحواله لا ينفك لسانه
رطباً بذكر الله ، يردد اسمه دائماً ، ويتהל إليه دائماً ، وبهذا يشعر المسلم أنه
يأوى إلى ركن مكين ، يمدد بعونه ، وينزل عليه نصره ، ويأخذ بيده إلى
صراط مستقيم .

والمسلم فوق ذلك كله يذكر الله عز وجل في كل أوقاته ، لا يختص
بذلك وقت دون وقت ، بل هو على كل حال في ذكر وتكبير وتسبيح
وتهليل .

فهو عند البيع والشراء يذكر الله ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في
الأرض ، وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾^(٥) .
وهو في قيامه وقعوده يذكر الله ﴿ فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً
وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾^(٦) .

وهو بين أمواله وأولاده يذكر الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم
أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾^(٧) .

وهو في المسجد والسوق يذكر الله ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر

(١) رواه ابن المنى .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه النسائي .

(٤) رواه أبو داود .

(٥) سورة الجمعة / ١٠ .

(٦) سورة النساء / ١٠٣ .

(٧) سورة المنافقون / ٩ .

فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴿١﴾ .

وهو في السلم والحرب يذكر الله ﴿٢﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴿٣﴾ .

وهو في أضييق المواقف وأخرجها يذكر الله ﴿٤﴾ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تيا في ذكرى ﴿٥﴾ .

وهو في كل أحواله يذكر الله ﴿٦﴾ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿٧﴾ .

وهكذا يظل المسلم طول نهاره لا يفتر عن ذكر الله ، حتى إذا عاد إلى أهله وأراد أن يأوى إلى فراشه ما كان له أن يكف عن ذكر الله ، فإذا أراد خلع ثيابه قال : بسم الله الذي لا إله إلا هو ﴿٨﴾ .

فإذا أراد أن يباشر زوجه قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا ﴿٩﴾ .

فإذا قضى حاجته من أهله ، وأراد أن ينام فعليه أن يختم يومه بذكر الله ، كما بدأه بذكر الله ، حينئذ ينفض فراشه بطرف ثوبه ثلاثاً ثم يقول : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ﴿١٠﴾ .

فإذا أصابه أرق ، ولم يستطع النوم يقول : اللهم رب السموات السبع وما أظلت : ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لى جأراً من شر خلقك أجمعين ، أن يفرض على أحد منهم أو أن يطغى ،

(١) سورة النور / ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) سورة الأنفال / ٤٥ .

(٣) سورة طه / ٤٢ .

(٤) سورة الأحزاب / ٤١ ، ٤٢ .

(٥) رواه ابن السنى .

(٦) رواه البخارى .

(٧) رواه الشيخان .

عز جارك ، وتبارك اسمك (١) .

فإذا استيقظ ليقوم الليل وهى سنة محمودة ينبغى للمسلم أن يحافظ عليها ، ولا يخلى ليله من ركعات يصل قلبه فيها بالله عز وجل . عندئذ يقول : اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله (٢) .

هكذا يكون المسلم مربوطاً بذكر الله ، وثيق الصلة بمولاه مشدوداً قلبه إلى السماء ، عندئذ يكون أهلاً لنصر الله ، ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ﴾ (٣) .

وهكذا يتعهد الإسلام جنوده ، وهكذا يربهم بتلك التربية المتكاملة التى تنهض بهم جسمياً وعقلياً وروحياً حتى يصبح كل منهم ذلك الجندى الذى يرفع رأس وطنه ، ويحمى بلاده ، ويحقق لها المنعة ، ويجلب لها المجد والعزة .

وهكذا تؤدى القيادة واجبها نحو جنودها : تؤديه كاملاً غير منقوص لأنها تعلم أنها مسئولة عنه أمام الله تعالى وأنها ستقف بين يدى الله جل شأنه وقفة طويلة ، وستحاسب يومئذ عن كل صغيرة وكبيرة .

إن القيادة فى الإسلام تكليف لا تشرىف ، وقائد المسلمين أكثرهم تبعه ، فهو مسئول عن نفسه وأهله ، ثم هو مسئول عن كل فرد من رعيته ، مسئول عن إطعام الجائع ، وكسوة العارى ، ومعالجة المريض كما هو مسئول عن تمهيد الطريق ، وإقامة الجسور ، وبناء المشافى .

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه البخارى .

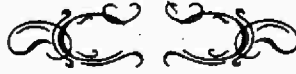
(٣) سورة الروم ٣ - ٤ .

وليست هذه المسئولية أمام مجلس الوزراء ، ولا أمام مجلس الشورى ولا أمام الشعب ، وإلا لكان الأمر هيناً ، يكثر فيه استدراك الخطأ ، وتغيير القوانين لرفع المسئولية ، ولكنها مسئولية أمام الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

ولقد كان هذا المعنى مستقراً تماماً فى نفوس المسئولين من المسلمين ، وعبر عنه الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوله : « لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لم أسو لها الطريق » ؟

كذلك كان الخليفة الزاهد — عمر بن عبد العزيز رحمه الله — يرسل مناديه إلى الأسواق ينشد طلبة العلم المحتاجين والفقراء المعوزين ليعطيهم حقوقهم ، حتى كان يزوج غير المتأهلين .

دخل عليه مرة أحد أبنائه ، فرأى فى أصبعه خاتماً ثميناً فسأله ، كم قيمته ؟ فقال : سبعة آلاف درهم ، فقال : أى بنى ، بعه ، واطعم بئمنه سبعة آلاف مسكين ، واشتر لك خاتماً من حديد ، واكتب عليه : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .



حقوق القيادة

وللقيادة حقوق جزاء ما قدمت من الواجبات ، وهذه الحقوق وضحتها السنة الشريفة ، وحدد معالمها رسول الله ﷺ فكان لزاماً على المسلمين أداؤها ، وكان الإهمال فيها والتقصير في القيام بها ، إهمالاً لواجب شرعى ، وتقصيراً في أمر من أمور الدين .

وكما أن القيادة أدت واجبها ، فعلى المسلمين أن يوفوها حقوقها جزاء وفاقاً ، وتلك الحقوق تتلخص فيما يأتى :

- ١ - السمع والطاعة .
- ٢ - المناصرة والتأييد .
- ٣ - النصيح والتسديد ولتتناولها بالتوضيح سائلين الله جل علاه العون والتوفيق .

١- السمع والطاعة :

وهما من أهم حقوق القيادة في كل زمان ومكان ، إذ بغير السمع والطاعة لا يمكن الضبط والربط ، كما لا يمكن تكوين جيش رادع لعدوه ، يدافع عن وطنه ، وبغير السمع والطاعة تكون الفوضى التى لا نظام فيها ، والاضطراب الذى لا استقرار معه ، ولهذا قال ﷺ « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زينة » (١) .

والمسلمون منذ نشأتهم تربوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، وعلى كل حال ، فليس لمسلم قط أن يتردد في أمر صدر إليه

(١) رواه البخارى .

من الله ورسوله ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (١) .

وكان مجرد التردد نفاقاً يفضح صاحبه ، ولهذا لما نزل قوله تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ، أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ﴾ قال المؤمنون : « لو فعل الله لفعلنا » وقال أحدهم : « لو أمرنا الله لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا » فلما بلغ ذلك النبى ﷺ قال : « إن من أمتى لرجالاً بالإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى (٢) .

المسلم الحق هو الذى أسلم نفسه لله عز وجل وليس من حقه أن يتردد فى أمر يصدر إليه من أميره ، ذلك لأنه من أطاع أميره فقد أطاع رسول الله ﷺ ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن يعصنى فقد عصا الله ، ومن يطع أميرى فقد أطاعنى ومن يعصى أميرى فقد عصانى » (٣) .

وهكذا يجب أن يكون المؤمن ، يصدع بما يؤمر ، وينفذ ما يطلب منه ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون ﴾ (٤) .

ولا يكون السمع والطاعة فيما تحبه النفس وترغب فيه فقط ، ولكن السمع والطاعة المطلقة فى كل ما يحب الإنسان أو يكره ، وفيما هو سهل ميسر أو شاق عسير ، يقول عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا » (٥) .

(١) سورة الأحزاب ٣٦ .

(٢) تفسير الطبرى ج ٨ ص ٥٢٦

(٣) مسلم ج ٦ ص ١٣ .

(٤) سورة النور ٥١ .

(٥) مسلم ج ٦ ص ١٧ .

ويروى ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره » (١) .

والسمع والطاعة ، لا يكونان لوجهة الأمير ، أو الخوف منه ، وإنما السمع والطاعة لكل أمير يلى أمر المسلمين ما دام يقودهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففي حديث أم الحصين تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أمر عليكم عبد مجدع أسود ، يقودكم بكتاب الله تعالى فاسمعوا وأطيعوا » (٢) .

وليست الطاعة إلا في المعروف ، فأما أمير أمر بمعصية فهو غير مطاع ففي حديث على كرم الله وجهه « إنما الطاعة في المعروف » (٣) .

وفي حديث ابن عمر رضى الله عنهما « إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » (٤) .

وليست الطاعة عندنا عمياء ، بل هي طاعة مبصرة رشيدة تصدر عن اقتناع وبصيرة ، فأما أمير حاول زج جماعة في أمر لا يتفق مع قواعد الشرع والعقل ، فأمره مردود عليه ، عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً وأمر عليه رجلاً ، فأوقد ناراً ، وقال : ادخلوها ، فأراد ناس أن يدخلوها ، وقال آخرون : إنما فررنا منها ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها : « لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة » وقال للآخرين قولاً حسناً ، وقال : « لا طاعة في معصية الله ، وإنما الطاعة في المعروف » (٥) .

هكذا يرى الإسلام جنوده تربية رشيدة حكيمة ، تؤدي فيها القيادة

(١) مسلم ج ٦ ص ١٥ .

(٢) مسلم ج ٦ ص ١٥ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) مسلم ج ٦ ص ١٥ .

واجبها وتمارس حقوقها ، فليس قائد المسلمين بالمستبد المتغطرس ، ولا هو بالجائر المتكبر ، ولكنه العادل الشفيق المتواضع الرفيق ، يحنو على جنوده ويعطف عليهم ، يدفعه إلى ذلك شعور بالواجب ، وعاطفة نبيلة تجعله يشعر أنه أب لصغيرهم ، وأخ لكبيرهم .

وليس الجنود عاقين متمردين ، ولا منتهزين متربصين ، ولكنهم أبرار مطيعون ، بوسائل مضمحون ، يدفعهم إلى ذلك إيمان عميق وعقيدة راسخة ، وشعور دفاق يحذب القيادة عليهم ، وحرصها على مصالحهم .
وإذا كانت القيادة من هذا الطراز الفذ ، وكان الجنود على هذه الشاكلة الفريدة ، تم التجاوب ، وساد الوفاق ، وعندئذ تأمر القيادة فيطيع الجنود ، وتنتف فيلبون ، وتخطط وهم ينفذون .

٢ - المناصرة والتأييد :

وهما حق من حقوق القيادة ما دامت تقود المسلمين بأوامر الله ، وتحكمهم بكتاب الله ، وتأخذ بأيديهم إلى الخير ، وتهديهم إلى الرشد ، فحينئذ يجب مناصرتها وتأييدها ، وبذل أقصى الجهد في مؤازرتها ، لأن في تأييدها ومؤازرتها تأييداً للحق ، ومؤازرة للخير ، وتلك هي مهمة المسلمين وغايتهم في هذه الحياة .

ولقد أخذت المناصرة صوراً شتى حسبما يقتضيه الموقف وتدعو إليه الضرورة ، فكانت تارة بالوقوف إلى جانب القيادة وهو ما نسميه المشاركة الوجدانية ، وتارة بالدفاع عنها باللسان مرة وباللسان مرة ، وتارة أخرى ببذل الأموال والأنفس في سبيل الحفاظ عليها ، والجنود في كل هذا يؤدون واجباً عليهم معتقدين أنه حق للقيادة الرشيدة ، لا بد من تقديمه لها ، وفاء لما قدمته من جهد ، وما بذلته من تضحيات .

المشاركة الوجدانية :

والوقوف إلى جانب الحق نوع من المؤازرة يعز أحياناً الحصول عليه ،

وهو مع كونه يبدو سلبياً إلا أنه في حينه ، وحين لا يستطيع الإنسان غيره موقف رائع لا ينساه المنصفون لذويه ، والإنسان في محنته يتفقد أنصاره ، ويلتمس العون من أحبابه ، فإن وجد منهم التألم لما يصيبه — وهو أقل ما يقدمه نصير ومعين — وهم لا يقدرّون على غيره ، سلت نفسه ، وخفت عليه آلامه .

وإنك لترى نبل الإنسانية — أحياناً — في دمة طفل أكثر مما تراها في ضربة سيف من رجل قوى ، وإن الكلمة الطيبة يقوها إنسان لا يملك غيرها أثلج للصدر من طعنة رمح من يدى شجاع فتى ، وكلمة الحق في وجه الظالم من رجل لا يستطيع سواها أروع في واقع الأمر من خوض معركة دامية من فارس مغوار .

وإنك لتلمس هذا الموقف ، وتهزك روعته حينما تكون ضعيفاً في يد ظالم قوى ، وحينما يتخلى عنك أشقاؤك وذووك وزوجك وبنوك ، وأهلك وأبوك ، ثم تتلفت حولك فلا تجد إلا إنساناً يشاطرك محنتك ، يتألم لألمك ، وتتقطع نياط قلبه حسرة على ما ينزل بك من العذاب ، ثم يقدم نفسه طائعاً مختاراً ليتحمل عنك قسطاً من هذا العذاب أو يشاركك فيه ، حقاً ما أروع المؤازرة ولو بكلمة في وقت تكلم فيه الأفواه ، ويعز فيه المتكلمون .

حدث ذلك في مكة يوم كانت الدعوة الإسلامية في مقتبل عمرها ، ويوم كانت القيادة الإسلامية عزلاء إلا من إيمانها ، يوم كان رسول الله ﷺ يتلفت حوله فلا يرى إلا بلالاً مكبلاً في أصفاده ، وعماراً يصب الحميم على رأسه وينصت فلا يسمع إلا أنات سمية ، وتوجعات ياسر وصرخات صهيب .

إن هؤلاء لا يملكون من مناصرة القيادة وتأييدها إلا أن يقفوا هذا الموقف الصامد الرائع ، وكان باستطاعتهم أن ينجوا من هذا العذاب لو تخلوا عن القيادة ، وفروا من الميدان ، وحيثذ يكون على القيادة أن تتحمل وحدها هذا العبء الثقيل ، ولكن ذلك لم يكن من الجنود ، وكانت هذه المناصرة — التي يراها كثير من البسطاء سلبية — كانت أروع ما حمله إلينا التاريخ من مواقف هؤلاء المستضعفين .

وحدث ذلك فى العصر الحديث حين امتدت يد الظلم والإرهاب إلى الفئة المؤمنة ، تتخطفهم من كل درب ، وتطارهم فى كل صوب ، وترمى بهم — دون مبالاة — فى غيايات السجون ، وأمعنت فى تعذيبهم حتى استولى الرعب على القلوب ، وسيطر الفزع على النفوس ، وحتى أصبح الرجل يتبرأ من ابنه وأخيه مخافة أن يشاركه محنته ، ويعيش معه آلامه ، وحتى كانت الزوجة تطلب من زوجها الطلاق وترمى بأولاده فى قارعة الطريق مخافة أن تهتم بمساعدته والوقوف إلى جانبه .

وكان المؤمن الممتحن يلتفت حوله ، فلا يجد أباً يسليه ولا أخاً يواسيه ، ولا زوجة تصافيه ، ثم يلتفت فلا يجد إلا إناساً شاطروه محنته ، وقاسموه آلامه ، وينصت فلا يسمع إلا آهات المعذنين ، وزفرات المكومين .

إن أقسى ما يصاب به المرء فى حياته تخلى إخوانه وأحبابه عنه فى وقت عصيب ، تؤدى فيها الكلمة الطيبة دورها ، وتعمل فيه المشاركة الوجدانية عملها فى تخفيف الآلام وتعزية المصاب وتهذئة الخواطر .

وإن أقسى من هذا التخلي وأمر أن يضمن الإنسان حتى بكلمة الحق ، فلا يقولها ، وأن ين عزل وجدانياً عن أهل الحق ، فلا يشاركهم آلامهم — وذلك أضعف الإيمان — وكان باستطاعة هؤلاء المعذنين أن ينجوا من هذا العذاب لو تخلوا عن الحق ، وأعلنوا تأييدهم للباطل ، ولكن ذلك لم يحدث من الجنود ، بل كان منهم المناصرة والتأييد للقيادة المؤمنة التى شاركهم هذا العذاب ، وأبت أن تنخدع بوعود معسولة ، وأماني جميلة ، وأصرت على البقاء مع الجنود حتى تنكشف الغمة ، وتزول المحنة ، ويرتفع البلاء .

وزالت المحنة ، وباء الطغاة بما كسبت أيديهم ، وخرج المؤمنون منها أشد ثقة بالله ، وأصلب عوداً ، وأصفى معدناً وقلوباً ، وأكثر تمسكاً بإيمانهم وقيادتهم .

والحقيقة أنه ليس للجنود الحرية فى تحديد موقفهم من القيادة فى هذه المشاركة الوجدانية ، لأنها واجبة على كل مسلم ، بل هى أضعف الإيمان كما قلت من قبل ، وإن تخلى الجنود عن هذا الموقف فهو بعينه الهروب من الميدان ،

وخذلان للحق ، وفرار من الواجب وليس بعد التخلي عن الحق ، والفرار من الواجب لإيمان يرتجى ، ومن أجل هذا أخبر الله سبحانه بأن الذين آزرُوا رسول الله ونصروه ، وأيدوه وعزروه هم المفلحون حقاً ، قال تعالى ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ ، الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) .

المشاركة الفعلية :

لم تزل الفئة المؤمنة تلتف حول قيادتها ، وتحوطها باهتمامها ، وتحمل ألوان العذاب ولا تتخلي عنها ، حتى آنتست من نفسها قوة ورأت أنها تستطيع الدفاع عن نفسها ، وتحمى قيادتها ، فلم تبخل حينئذ بجهد ، ولم ترض بعزيز ، حتى أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما قال عمر : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ بلى ، فقال عمر : فقيم الاختفاء ؟ .

وخرج المسلمون في صفين : عمر في أحدهما ، وحمزة في الآخر حتى دخلوا المسجد ، يقول عمر رضي الله عنه فنظرت قريش إلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة ، فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ (٢) .

فكان إسلام حمزة رضي الله عنه ومن بعده عمر منعة لهم حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر (٣) .

وفي البخاري عن ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ومنذ ذلك بدأ المسلمون يدرأون عن أنفسهم اعتداء المشركين ، ويدفعون عدوانهم بمثله ، روى عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه سعد قال : خرجت أنا وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر ، وابن مسعود في شعب أبي دب نتوضأ ونصلي ، ونحن مستخفون ، إلى أن ظهر علينا نفر من

(١) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ١٠٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٣ .

المشركين فقد كانوا يرصدوننا ، واتبعوا أثرنا ، أبو سفيان بن حرب والأخنس ابن شريق وغيرهما فعابوا علينا ذلك وأنكروا حتى بطشوا بنا ، ففضاربنا واقتلنا ، فأخذ سعد لحي جمل فضرب به رجلاً من المشركين فأشجه شجة أوضحت ، فأنكر المشركون وقوى أصحابي ، وطردها حتى خرجوا من الشعب ، فكنت أول من هراق دماً في الإسلام^(١) .

وكانت تلك بداية المعارك للدفاع عن العقيدة ، ومناصرة القيادة .

المناصرة باللسان :

لم يرض المسلمون بمجهود يستطيعونه في مناصرة القيادة ، فكانت باللسان تارة ، وبالسنان تارة أخرى ، كانوا يدافعون بأنستهم حين لا يملكون الدفاع بغيرها ، من ذلك ما حدث لزيد بن الدثنة رضى الله عنه بعد أن تمكن منه المشركون وعلقوه ليقتلوه ، يقول القسطلاني : نادى أبو سفيان بن حرب زيداً ، يا زيد أتحب أن تكون في أهلك وولدك ومحمد في مكانك هذا ؟ فيرد زيد عليه ، لا والله ، لا أحب أن أكون في أهلي وولدي ورسول الله ﷺ يفديني بشوكة في قدمه .

قال أبو سفيان : ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمد^(٢) .

وفي مختصر السيرة عن خباب رضى الله عنه قال : كنت قينا — حداداً — بمكة ، فعملت للعاصي بن وائل السهمي ، فجئت أتقاضاه ، فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا . لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحْييك^(٣) .

وفي رواية أنس رضى الله عنه عند البيهقي قال : خرج عمر متقلداً بالسيف ، فلقيه رجل من بني زهرة ، فقال : أين تعمد يا عمر ؟ فقال له أريد أن أقتل محمداً ، قال : وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً ؟

(١) الأوائل للعسكري ص ١٧٢ .

(٢) المواهب اللدنية ج ١ ص ١٠٢ .

(٣) مختصر السيرة ص ١٢٦ .

قال : ما أراك إلا صبوت ، قال : أفلا أدلك على العجب ؟ إن أختك وختنك — زوج أختك — قد صبوا وتركوا دينك .

فمشى عمر فأتاهما وعندهما خباب ، فلما سمع عمر توارى في البيت ، فدخل فقال : ما هذه الهيمنة ؟ — وكانوا يقرأون طه — قالوا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبوتما فقال ختنه ، يا عمر إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عليه عمر فوطئه وطأ شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها ، فنضحها بيده ، فدمى وجهها ، فقالت وهى غضبية : إن كان الحق في غير دينك ؟ إني أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فقال عمر : أعطوني الكتاب الذى عندكم فأقرأه — وكان عمر يقرأ الكتاب — فقالت أخته : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم واغتسل وتوضأ ، فقام وتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ « طه » حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (١) .

تلك مواقف مشهودة يسطرها التاريخ بكثير من الاعتزاز والفخر لهؤلاء المستضعفين الذين لا يملكون إلا قلوبهم وألستهم ، ولم تكن قلوبهم إلا أوعية لإيمانهم ، وليست ألستهم إلا سيوفاً ينافحون بها عن إيمانهم وقيادتهم .

فزيد بن الدثنة أسير لا يملك إلا لسانه ، ولم يهب القوم ودافع به « لا أحب أن أكون معافى في أهلى ، ومحمد مكاني يفديني بشوكة في قدمه » .

وخابب غريب ضعيف لا يملك إلا الإصرار على الحق ، وقد فعل دون تقصير « لا أكفر بمحمد حتى يمتك الله ثم يحيلك » وأما أخت عمر فهى امرأة في بيتها ، ولم يكن زوجها يتوقع قدوم عمر ، فلم يكونا على استعداد لمواجهة ، ولما يفتها ، لم يكونا يملكان إلى الحجة التى تدمغه ، وتدله على الحق ، ولم يكتماها . « إن كان الحق في غير دينك ؟ فلما أراد أخذ الصحيفة قالت أخته : « إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون » .

ومناصرة بالسلاح :

كما دافع المسلمون عن عقيدتهم وقيادتهم بالأسنتهم حين كانوا لا يملكون

(١) رواه الحاكم والبيهقى .

غيرها ، دافعوا عن عقيدتهم وقيادتهم بأسلحتهم حين أذن لهم في ذلك ، فحاضوا أعنف المعارك ، واقتحموا أصعب الأهوال ، دفاعاً عن الحق الذي اعتنقوه ، ودرءاً عن القيادة التي تمثل تلك العقيدة .

لما خلس المشركون إلى رسول الله في غزوة أحد ، وكادوا يلتهمونه بسيوفهم ورماحهم ، ترس حوله رجال من المسلمين ، حتى لا ينال المشركون منه مأربهم .

فأبو دجانة رضى الله عنه ترس عنه بظهره ، وكان النبل يقع فيه ، ولا يتحرك عنه^(١) ، وعلى كرم الله وجهه أخذ بيده ، وأخرجه من الحفرة التي وقع فيها^(٢) ودافع بين يديه دفاعاً عظيماً ، وطلحة بن عبيد الله وقاه بنفسه ، وحارب عن يمينه وشماله ، حتى روى البخارى عن قيس قال : رأيت يد طلحة ابن عبيد الله شلاء ، وفي بها النبي ﷺ يوم أحد .

وفي صحيح ابن حبان عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال أبو بكر الصديق : لما كان يوم أحد انصرف الناس عن النبي ﷺ فكنت أول من فاء إليه ، فرأيت بين يديه رجلاً يدافع عنه ويحميه فقلت : كن طلحة فذاك أبى وأمى فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشدد كالطير حتى لحقني ، فدفعنا إلى النبي ﷺ فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبي ﷺ « دونكم أخاكم فقد أوجب » قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه ، وقد أصابه بضع عشرة ضربه .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك يوم كله لطلحة^(٣) .

وكان لسعد بن أبى وقاص دور مهم وعظيم ، فكان رسول الله ﷺ كنا كنانته وقال : « ارم فداك أبى وأمى » وروى عن سعد رضى الله عنه قال : سل لى رسول الله ﷺ كنا منه وقال : « ارم فداك أبى وأمى »^(٤) .

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ٩٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٥ .

(٣) مختصر سيرة الرسول ص ٢٤٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

وقاتل مصعب بن عمير رضى الله عنه دون رسول الله حتى قتل قتله ابن
قمئة يظنه رسول الله ﷺ (١) .

وفى البخارى رحمه الله « مر أنس بن النضر يقوم قد ألقوا بأيديهم فقال :
يا قوم ، ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ، فقال ما تصنعون بالحياة
بعده ؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل الناس ولقى سعد بن معاذ
فقال : يا سعد إني لأجد ريح الجنة من دون أحد ، ثم استقبل المشركين وقال :
اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء — يعنى المشركين — واعتذر إليك مما
صنع هؤلاء — يعنى المسلمين ، ثم قاتل حتى قتل ، فما عرفه إلا أخته بينانه ،
ووجدوا به سبعين ضربة » .

وكذلك قاتل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه حتى أثختته الجراح
ووجدوا به عشرين جراحة ، بعضها فى رجله ، ظل يعرج منها حتى مات (٢) .

تلك فدائية نادرة لم تعرفها الدنيا من قبل أصحاب رسول الله ﷺ ورضى
الله عنهم أجمعين جادوا بأنفسهم وأرواحهم لحماية عقيدتهم وقيادتهم
— والجود بالنفس أقصى غاية الجود — .

لقد علم الجنود أن اللسان لا يغنى فى هذا الموقف شيئاً ، فامتشقوا
السلاح ، وأيقنوا أن الكلمة لا مجال لها هنا ، فعجدوا الحسام ، وتأكدوا أن
الأمر جد خطير لا يحسمه إلا البذل والكفاح فبذلوا المهج والأرواح .

ثم مناصرة بالأموال :

والمال شقيق الروح وقد يحرص عليه الإنسان أكثر مما يحرص على نفسه ،
علم الله ذلك من عباده فانتدبهم لبذله وحشهم على الخروج من شح أنفسهم
بإنفاقه ، فى سبيل الله ، ولعل تقديم الأموال على الأنفس فى آيات الجهاد
توضيح لمكانة المال من نفوس الرجال ، وتحريض لهم على التبرع به لينالوا
منازل الأبرار .

(١) نفس المصدر ص ٢٤٩ .

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ٢٤٩ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ ﴾ (١) .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۖ ﴾ (٢) .

﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ ﴾ (٣) ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۖ ﴾ (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ ﴾ (٥) .

هذا الحرص على تقديم الأموال على الأنفس في معظم آيات الجهاد يفيد تذكيرنا بقيمة بذل الأموال للمناصرة العقيدة والقيادة وبين منزلة الأموال حين تبذل ولا تكتز ، ويضحى بها ولا يضحى لأجلها .

إن الجنود وهم ينصرون الحق بألستهم ، ويذلولون في سبيله أرواحهم ، ويخرجون من أجله عن أموالهم يكونون قد أدوا واجبه نحو عقيدتهم ، وقيادتهم ، وبدون ذلك يكون هناك نوع من التقصير يجب أن يسعى المسلم للتخلص منه .

إن المناصرة بالكلمة والروح ، دون بذل الأموال مع وجودها ثلثة في عقيدة المسلم ، ووهن في إيمانه ، وإن إمساك الأموال وعدم بذلها مع الحاجة إليها سبيل للشيطان ، يدخل منه إلى قلب المؤمن ، فيفيض إليه الموت ، ولو كان في سبيل الله ، ويتمنى الحياة ليستمتع بأمواله ، ويخوفه من قول كلمة الحق ، حتى لا يتعرض لسخط الناس ، فلا يسعد بما اكتنز من أموال ،

(١) سورة الأنفال ٧٢ .

(٢) سورة التوبة ٢٠ .

(٣) سورة التوبة ٤٠ .

(٤) سورة الحجرات / ١٥ .

(٥) سورة الصف ١٠ - ١١ .

وهكذا يكون إمساك المال مضيعة لجميع أنواع المناصرة .

فهم هذا المعنى عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أحد القواد الثلاثة في غزوة مؤتة ، فإنه بعد استشهاد صاحبيه ، أخذ الراية ، وتردد بعض التردد ، أيقدم أم يحجم ؟ والرسول مفرع والخطب جسيم ، فإن المسلمين خمسة آلاف ، يواجهون مائتي ألف من الروم وحلفائهم العرب .

ولكنه رضى الله عنه استجمع إيمانه ، واستعرض أسباب تردده ، فخشى أن يكون حب الدنيا ، والركون إلى ما فيها من أزواج وأموال ، وخاف أن يكون حب الحياة وتعلقها بنفسه هو سبب هذا التردد ، فعزم على نفسه لتردن مورد صاحبيه ، وكأنه خاطب نفسه قائلاً :

يا نفس مالك ترددين فيما أقدم عليه صاحباى ؟ أتحنين العودة إلى النساء ؟ نسائى كلهن طوالق ، أترغين فى الاستمتاع بالأموال ؟ ؟ أموالى كلها حبس فى سبيل الله ، أتعلقين العودة إلى العبيد والإماء ؟ ؟ عبيدى كلهم أحرار ، ثم أنشد :

أقسمت يا نفس لتزلنه لتزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه مالى أراكى تكرهين الجنة
هل أنت إلا نطفة فى شنة ؟

وعاتب نفسه على ترددها ، ولامها إذ لم تقتد بهديهما فقال :

يا نفس إن لم تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تميت فقد أعطيت إن تفعل فعلهما هديت

وبهذا يتخلص ابن رواحة رضى الله عنه من كل ما يشده إلى الدنيا ويربطه بالأرض ، فيطلق نساءه حتى لا تشوق نفسه إليهن ويحبس أمواله حتى لا تتعلق نفسه بها ، ويعتق عبيده حتى لا ترغب نفسه عن الجهاد بسببهم ، ثم يقدم فيموت كما مات صاحباؤه .

ونحن نرى أبا بكر الصديق رضى الله عنه فى يوم الهجرة يأخذ ماله كله ويسأله رسول الله ﷺ وماذا أبقيت لعيالك ؟ فيقول : أبقيت لهم الله

ورسوله ، وكان ماله خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف (١) .

وفي يوم غزوة العسرة يكون المسلمون في حاجة ملحة إلى المال ، ورسول الله ﷺ يحرض الناس على الإنفاق ، فيسرع عمر رضى الله عنه ويحضر نصف ماله ، فيجد أبا بكر رضى الله عنه سبقه بماله كله ، وكان أربعة آلاف درهم (٢) فيقول عمر والله لا أباريه بعدها أبدا .

ويقدم عبد الرحمن بن عوف مائتي أوقية من فضة ، فيجد عثمان بن عفان رضى الله عنهما قد جهز مائتي بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتي أوقية من الذهب (٣) ، وترسل النساء كل ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم (٤) .

ويرى رسول الله ﷺ ذلك فتقر عنه ، ويثلج صدره ، وينظر إلى صدقة عثمان ، ويقول : اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه (٥) ، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم (٦) .

هكذا كان المسلمون يتنافسون في الخيرات ، ويتسابقون إلى الطاعات ويخرجون عن أموالهم طائعين ، ينصرون بها قيادتهم ، ويدافعون عن عقيدتهم ، ملين قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْلِكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ، تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَىٰ تَحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) .

(١) سيرة ابن هشام م ١ ص ٤٨٨ .

(٢) مختصر سيرة الرسول ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

(٣) المواهب اللدنية ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) مختصر السيرة ص ٣٩٢ .

(٥) ابن هشام م ٢ ص ٥١٨ .

(٦) رواه الترمذى .

(٧) سورة الصف ١٠ - ١٣ .

٣- النصيح والتسديد :

والنصيحة واجبة على كل مسلم ، قادر عليها عارف بطرق تأديتها ، ولقد عظم رسول الله ﷺ شأن النصيحة التي جعلها هي الدين ، ذلك لأن إهمال النصيحة يؤدي إلى تفكك الأمة وتفرقها ، وانتشار الفوضى في أنحائها ، وتآدية النصيحة يقيم الأمة ويوحدها ، ويشد أزرها ويدعمها ، ويقضي على الفوضى ، ويدمرها ، ولهذا قال ﷺ « الدين النصيحة ، قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

والنصيحة بهذا المعنى أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن النصيحة تشمل ذلك وزيادة ، وهي بهذا المعنى أيضاً تكون فرض كفاية على الأمة ، إذا قام به البعض ، سقط الإثم عن الجميع وإلا أثموا جميعاً .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — كما قلت — من النصيحة التي يستقيم بها أمر الأمة ، وتكون بها خير الأمم جميعاً ، قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾ (٢) .

ومراتبه ثلاث : أعلاها التغيير العملي ، وأدناها إنكار القلب ، وتأمله للمنكرات ، ورضاه واغتباطه بالمعروف ، وأوسطها التوجيه المخلص بالكلمة الطيبة وعلى أن يكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر الله سبحانه .

واتفق العلماء على أن التغيير باليد لا يكون إلا عند القدرة عليه ومن القادر عليه كأولى الأمر بمعناها العام ، حتى تشمل الوالد في بيته والرئيس في عمله ، بحيث يكون كل واحد من هؤلاء مسئولاً عن كل من تحت يده ، وعندئذ يغير المنكر بيده ، ويقوم المعروف بنفسه ذلك لأنه بهذه المثابة راع على من هم تحت يده ، وهو مسئول عن هذه الرعاية مسئولية تامة ، وعليه ليرفع عن نفسه تبعة تلك المسئولية أن يراعى حقوق الله ، فإن رأى خللاً في عمله أو في بيته قومه وعدله ، وإن رأى حسناً أقره وحث عليه فيعاقب على التقصير

(١) رواه مسلم م ١ ص ٥٣ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠ .

بعد أن يبذل جهده في الإصلاح والتوجيه ، ويثيب ويكافئ على الإحسان والمحافظة على فعل الخير .

والله تبارك وتعالى قد أمرنا بضرب النساء بعد وعظهن وهجرهن إذا أصررن على الشوز ، وذلك تغيير باليد ، والرسول ﷺ أمرنا بضرب أبنائنا إذا بلغوا عشر سنين ولم يصلوا ، وذلك تغيير باليد .

قال تعالى : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ﴾ (١) .

ويقول ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين » (٢) .

وأما الإنكار بالقلب ، والتألم لرؤية المعاصي ، فلا يجوز الاكتفاء به إلا ممن كان عاجزاً عن التغيير باليد واللسان ، لأنه أدنى مراتب الإيمان ، والحالة التي تليه مخيفة ومزعجة ، إذ ليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة من خردل ، فمن رأى المنكر وسر به ، أو رأى المنكر ولم يتغير قلبه ويتألم لما رأى ، فهو على خطر عظيم ، لأنه بذلك يكون قد انحدر إلى ما دون أضعف الإيمان وفقد مثقال الحبة التي تتحقق بتألم القلب واشتمزازه من المعصية ، لهذا يقول ﷺ : « فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (٣) .

وأما التوجيه والإصلاح بالكلمة الطيبة ، فذلك أوسط الأمور الثلاثة ، وهو مقدور لكثير من الناس .

واشترطوا فيه شروطاً في الناصح ، وشروطاً في النصيحة .

شروط الناصح :

أولاً : أن يكون عالماً بالحكم الشرعي لما يأمر به أو ينهى عنه ، لأنه إذا لم

(١) سورة النساء ٣٤ .

(٢) من حديث لأحمد في مسنده .

(٣) رواه مسلم م ١ ص ٥٠ - ٥١ من حديث طويل .

يكن عالماً بالحكم الشرعى يتعرض للخلط والخطأ فيحسب السنة واجباً والمكروه حراماً ، ولا يفرق بين البدعة والسنة وبالعكس ، وحينئذ قد يقع في المحذور فيأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، ويترتب على ذلك من المفاسد ما لا تحمد عقباه ، ويكون الناصح عرضة للسخرية والاستخفاف مما يصرف الناس عنه فلا يفيد ولا يستفاد منه .

ثانياً : أن يتحرى الطريقة المناسبة عند أمره ونهيه مراعيًا الظروف والأحوال التى يعيش فيها الناس لأنه إذا لم يتحرر الطريقة المناسبة ، ولم يراع ظروف المنصوحين وأحوالهم عند الأمر والنهى يترتب على ذلك من الأضرار ما كان المسلمون فى غنى عن الوقوع فيه ، فقد يشتد فى موضع اللين فينفر منه الناس ولا يستمعون إليه ، أو يغلظ فى موطن الرفق ، أو يتهاون فى موقف لا يصلح فيه إلا الحزم ، وعندئذ تضيع الفرصة وتعدم الفائدة ، فلا يستفيد المنصوح ، ولا يثاب الناصح .

ثالثاً : أن يكون عاملاً بما ينصح به الناس مطبقاً له على نفسه وأهله ومن يعول ، لأنه إذا لم يعمل هو بما يأمر به الناس لا يصل نصحه إلى القلوب ، ولا تتجاوب مع كلامه النفوس ، فيظل كلامه جافاً لا يتجاوز أذان الناس ، ونصحه هزيباً ، لا يقرى على اقتحام قلوبهم ، ويضع نفسه بذلك موضع الهمز واللمز ، وقديماً قال الشاعر :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى طيب يداوى والطيب مريض
وقال آخر :

يأيتها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيمـــــــــــــــــا يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فأنهها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

ولقد نعى الله عز وجل على قوم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، واعتبر ذلك ضلالاً فى الرأى ، وقلة فى العقل ، فقال تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر ، وتسنون أنفسكم ، وأنتم تلون الكتاب أفلا تعقلون ؟ ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة ٤٤ .

واعتبر سبحانه وتعالى الكلام وعدم الفعل مقتاً كبيراً لا يليق بالمؤمنين
فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ كَبِيرٌ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

والآيتان الكريمتان مصدر الاستدلال على الشرط الثالث .

وأما الشرطان الأولان فمصدرهما قوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ
بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (٢) .

فالحكمة هنا هي الحجج القطعية الصحيحة كما قال صاحب فتح القدير ،
أو هي الأدلة اليقينية الموضحة للحق ، المزيحة للشبه كما صرح بذلك
البيضاوي .

المعنيان متحدان في وجوب معرفة حكم الشرع وأدله عند دعوة الناس
إلى الخير ونهيهم عن الشر .

والموعظة الحسنة هي المواعظ المفيدة المستحسنة التي يستحسنها السامع
لأنها تعود عليه بالنفع والفائدة .

وهذا هو ما قاله صاحب التفسيرين السابقين وجمهور من المفسرين ، وهي تحتم
ضرورة تحرى الطرق المناسبة المفيدة للمنصوح ، واتباعها عند تقديم النصيحة
حتى تقع موقعها .

ولقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نقوم بهذا الواجب في أمثلة عملية مع
أصحابه رضوان الله عليهم حين جاءه أعرابي فجذبه يردائه فحمر رقبته
— وكان رداء خشناً — فالتفت إليه ، فقال الأعرابي : احملني على بعيري
هذين ، فإنك لا تحملني من مالك ، ولا من مال أبيك ، فقال له ﷺ :
لا وأستغفر الله ، لا وأستغفر الله ، لا وأستغفر الله ، لا أحملك حتى تقيدني
من جذبتك التي جذبتني ، فقال الأعرابي : والله لا أقيدكها ، عندئذ دعا
رسول الله رجلاً ، وقال له : احمل له على بعيره هذين ، على بعير تمراً ، وعلى
الآخر شعيراً (٣) .

(١) سورة الصف ٢ — ٣ .

(٢) سورة النحل ١٢٥ .

(٣) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٩١ .

وعن زيد بن سعة قال : ابتعت من رسول الله ﷺ تمرأ إلى أجل ، فأعطيته الثمن فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة ، أتيت فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، ثم قلت ، ألا تقضيني يا محمد حقى ؟ فوالله إنكم يا بنى عبد المطلب مطل ، فقال عمر : أى عدو الله ، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكون وتؤدة وتبسم ، ثم قال : أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر ، أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التباعة ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً مكان ما رعته ، ففعل .

فقال زيد : يا عمر ، كل علامات النبوة عرفتها فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شمة الجهل إلا حلما ، فقد خيرتهما ، فأشهدك أن قد رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً (١) .

شروط النصيحة :

وليس المراد بالشرط هنا ما تعارف عليه الفقهاء ، وعرفوه بأنه « ما لا يوجد المشروط مع عدمه ، ولا يلزم أن يوجد عند وجوده » (٢) ولكن المراد بالشرط الأمور التى يستحسن وجودها عند القيام بالأمر حتى ترجى الفائدة منه ، وقد تكلم العلماء فى ذلك ، وأكدوا على ما يأتى :

- ١ — السرية .
- ٢ — ألا تؤدى النصيحة إلى ضرر أكبر .
- ٣ — غلبة الظن باستجابة المنصوح .
- ٤ — تقديم النصيحة بصورة تؤدى إلى قبولها .

وقالوا : إن وجود هذه الشروط يجعل النصيحة مفيدة ويدعو المنصوح

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٢) مطالب أدل التهر ص ٣٠٥ .

إلى تقبل النصيح ، وبذلك يكون عمل الدعاة إلى الله مثمراً ، وجهدهم مشكوراً .

أولاً : السرية في النصيح ، وذلك مطلوب ومهم إذا كان المنصوح شخصاً بعينه ، والخطأ غير متكرر من الناس ، ففي هذه الحالة تكون السرية هي أفضل السبل إلى تأثير النصيحة في المنصوح ، ولهذا قالوا : « من نصح أخاه سرّاً فقد زانه ، ومن نصحه جهراً فقد أهانه وشانه » .

أما إذا كان الخطأ متكرراً شائعاً ، أو كان المقصود تحذير الناس من الوقوع فيه ، أو تعليم الناس أمراً هاماً ما يحتمل التباسه عليهم ، فعندئذ يكون الجهر بالنصيحة أفضل من الإسرار .

وحين يجهر بالنصح لا يذكر اسماً بعينه ، ولا يخص شخصاً بذاته ، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ حين وقف بينه على بعض الأخطاء التي وقعت من أناس معلومين له ﷺ ومع ذلك لم يذكر أسماءهم ، ولم يعين شخصاً منهم ، بل قال : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا .

فالسرية إذن ليست شرطاً لازماً لكل نصيحة ، كما أن الجهر ليس بغيضاً في كل نصيحة ، بل لكل منهما مناسبتة وظروفه التي تحدد نوع النصيحة ، وطريقة أدائها .

ثانياً : ألا تؤدي النصيحة إلى وقوع ضرر أكبر ، وذلك شرط حتمي في كل نصيحة ، ذلك لأننا نريد بالنصيحة رفع ضرر محذور فإذا ترتب على فعلها وقوع ضرر أكبر يكون السكوت أفضل من تأديتها ، فالعاقل لا ينهى عن السجارة لتشرب الخمر ، ولا ينهى عن شرب الخمر ليقتل نفساً ، ولا يستنكر النظرة ليشبب في هتك عرض ، ولا يأمر باستعمال السواك حين يغلب على ظنه أن المأمور قد يترك الصلاة ، ولا يحض على تقصير الثوب وهو يظن أن ذلك قد يؤدي إلى إسباله وجره خيلاء .

فدفع أعظم الخطرين حتى إذا لم يكن بد من دفع أحدهما ، وتحمل أخف الضررين ، واجب إذا كان لا بد من تحمل أحدهما .

تلك قاعدة أصولية استقر عليها أمر العلماء ، ونحن ملزمون بتطبيقها والسير على هديها ، فأما أمر بمعروف أدى إلى فعل محرم أعظم من المتروك فالمعروف هنا هو ترك الأمر بالمعروف ، وأما نهى عن منكر أدى إلى ارتكاب منكر أكبر منه فالمنكر هنا هو النهى عن المنكر والإرشاد أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يتدبر عاقبة أمره عند الأمر والنهى .

وليس معنى هذا أن نقف أمام المنكر متفرجين ، وأن نسكت عن الأمر بالمعروف حتى تظهر نتائج البحث والدراسة بل يكفى في ذلك غلبة الظن ، وتجربة المرشد ، وحسن النية .

فالحسن بن على رضى الله عنهما قد بايعه الناس بالخلافة بعد أبيه ، واجتمع عليه أربعون ألفاً من المسلمين ، كلهم كان الحسن أحب إليه من أبيه ، وكانوا أطوع له من بناته ، وسار بهم فعلاً إلى معاوية ، واضطر معاوية أن يخرج بجيش الشام لصدهم .

وتقارب الجمعان ، وكانت الحرب وشيكة الوقوع ، فرأى الحسن رضى الله عنه أن خلع معاوية لن يتم إلا بعد هلاك المسلمين ، وأن الأمر لن يخلص لأحدهما حتى يذهب أكثر الفئتين ، عندئذ أقر معاوية على وضعه — مع ما في ذلك من مخالفة خطيرة لقاعدة اختيار الخليفة في الإسلام — وتنازل عن حقه ، ليحقن دماء المسلمين وليخمد فتنة كادت تقضى عليهم .

لا شك أن اقتناص الحكم ، والثوب عليه من غير طريقه المشروع أخف ضرراً من إزهاق أرواح المؤمنين ، وإشعال نار الفتنة بينهم لهذا رضى الحسن بتحمل أخف الضررين ، ودفع أهدح الخطرين .

وخطبة الحسن رضى الله عنه بعد تنازله لمعاوية تثبت تلك الحقيقة ، فقد روى الشعبي قال : لما جرى الصلح بين الحسن ومعاوية قال له معاوية : قم فاخطب بالناس ، واذكر ما كنت فيه ، فقام الحسن ، فخطب فقال : الحمد لله الذى هدى بنا أولكم ، وحقن بنا دماء آخركم ، إلا أن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون كان أحق به منى ، أو يكون حقى تركته الله ، وإصلاح أمة محمد ﷺ وحقن دمائهم ، ثم التفت إلى معاوية فقال : « وإن أدري لعله فتنة لكم

ومتاع إلى حين» (١) .

وأما خروج الحسين رضى الله عنه على يزيد بن معاوية فلأنه كان يعتقد أن له شيعة في الكوفة سيؤيدونه وينصرونه ، فلما تبين له الأمر ، ووقف على حقيقة ، عزم على الرجوع ، وطلب من جيش يزيد السماح له بالعودة ولكن الجيش لم يسمع له واضطر إلى خوض المعركة .

روى الدينورى أن عمر بن سعد أرسل إلى الحسين وهو بكريلاء يسأله ، ما أقدمك ؟ فقال الحسين لرسول عمر : « أبلغه عنى أن أهل هذا المصر كتبوا إلى يذكرون ألا إمام لهم ، ويسألوننى القدوم عليهم ، فوثقت بهم ، فغدروا بى ، بعد أن بايعنى منهم ثمانية عشر ألف رجل ، فلما دنوت فعلمت غرور ما كتبوا به إلى أردت الانصراف إلى حيث منه أقبلت ، فمنعنى الحر بن يزيد ، وسار حتى جعجع بى فى هذا المكان ، ولى بك قرابة ، قرية ، ورحم ماسة ، فأطلقنى حتى انصرف » (٢) .

فلولا اضطراب الحسين رضى الله عنه لعاد إلى حيث أتى لتأكده أن الخسائر ستكون أفدح وأعظم من المكاسب ، ولهذا طلب العودة وعدم القتال .

ثالثاً : غلبة الظن باستجابة المنصوح ، وهذا الشرط ليس حتمياً ، واختلف فيه العلماء ، فقال به بعضهم وأكدوه ، وحجته فى ذلك أنه إذا لم يغلب على الظن أن المنصوح سيستجيب لا تكون هناك فائدة مرجوة من النصيحة والنصيحة إنما تبذل للاستفادة بها ، والعمل بمضمونها ، لا لمجرد القول فإذا لم يتغلب رجحان الظن بعمل المنصوح بها فلا حاجة إلى بذلها .

وأما الذين لا يرون اشتراط ذلك ، فحجتهم أن المسلم مأمور بتأدية النصيحة ، وبذلها لمن هو بحاجة إليها ، وليس هناك دليل شرعى يستند عليه ممسك النصيحة إذا لم يغلب عليه الظن باستجابة المنصوح ، فعلى المسلم أن يبذل النصيحة ، ولا يضمن بها ، سواء استجاب المنصوح . أم لم يستجب ، ذلك لأنه مسئول عن النصيحة ، وسيحاسب على تركها ، ولكن ليس مسئولاً عن عدم استجابة المنصوح ، فعليه أن يسقط مسئوليته ببذل النصيحة ، وليس

(١) مختصر سيرة الرسول ص ٥٠٣ - ٥٠٤ والآية من سورة الأنبياء ١١١ .

(٢) الأخبار الطوال ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

عليه أن يوء المنصوح بإثم عدم الاستجابة .

وهذا هو أعدل الرأيين في المسألة ، وأوفقهما لأحكام الشرع وأنسبهما لمهمة الدعاة والمصلحين ، وقديماً قال الشاعر :

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تم المقاصد

رابعاً : وتقديم النصيحة في صورة مشرفة ، لا لوم فيها ولا تعنيف ، خالية من جرح شعور المنصوح ، أو إظهاره في صورة المخالف الجاهل شرط في قبول النصيحة والاستفادة منها .

دخل أحد الوعاظ على هارون الرشيد فأغلظ في نصحه ، وأغلظ في نكيره ، فقال هارون : ما هكذا تكون النصيحة ، إن الله عز وجل قد أرسل من هو خير منك إلى من هو شر مني ، وأمرهما أن يلينا القول ويحسننا العرض ، فقال عز من قائل ﴿ اذهبوا إلى فرعون إنه طغى ، فقلوا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (١) .

والآية الكريمة هي دليل من اشترط هذا الشرط ، ومفهوم الآية ، أن لين القول ، وحسن العرض يشمر التذكر والخشية بإرادة الله عز وجل وعدم استفادة فرعون من النصيحة مع استكمال شروطها يؤكد أن بذل النصيحة واجب وإن لم يستجب المنصوح .

والغالب المشاهد أن النصيحة إذا استكملت شروطها ، وأديت على وجهها تؤتي ثمرتها ، والتمودج العمل الرائع لتأدية النصيحة مستكملة شروطها ، مستوفية حقوقها ما حدث من شايبين كانا يسيران فرأيا رجلاً شيخاً كبيراً يتوضأ ولا يحسن الوضوء ، فعزما على نصحه وإرشاده ، ولكنهما خشيا أن يرفض الشيخ ، فديرأمرهما ، وانتظرا حتى انتهى من وضوئه ، وتقدما إليه .

قال أحدهما : يا عماه إن أخى يتهمنى بأنى لا أحسن الوضوء ، ويزعم أنه يتوضأ خيراً من وضوئى ، وقد رأيتك تتوضأ فرضيناك حكماً ، فهل تقضى بيننا ؟ .

وأجاب الشيخ ، لا بأس يا بنى ، وتقدم الأصغر فتوضأ وضوءاً أحسنا ، ثم تقدم الأكبر فأحسن وأسبغ ، عندئذ تنبه الشيخ لخطئه ، وقال : كلا كما أحسن

(١) سورة طه ٤٣ - ٤٤ .

وأسبغ ، وأنا الذى بحاجة لأن أتقن وضوئى وشكر لهما وانصرف الشبان .
تلك نصيحة استوفت شروطها ، فالناصح عالم بالحكم الشرعى ، وتحرى
الطريقة المناسبة ، وعمل بما ينصح به .

والنصيحة لم تؤد إلى ضرر قط ، وأديت فى صورة مشرفة جيدة قبلها
المنصوح ، لهذا أثمرت وآتت أكلها ، فانتفع بها المنصوح ، ورفعت الحرج عن
الناصح ، وعم خيرها ، فكانت درساً للذين يلون هذا الأمر من المسلمين ،
يتأسون به ، ويسيروا على نهجه وهديه .

وليست النصيحة محصورة فى دائرة ضيقة لا تتعدى محيط العامة فى
الشارع والدكان ، والمكتب والسوق ، والمسجد والمدرسة ولكنها تخرق هذا
النطاق ، فتطرق دواوين الرؤساء ومكاتب الحكام ، وتصل إلى قلب كل
إنسان ، وجعل الإسلام هذا النوع من النصح فى درجة عالية ، كما جعل ثوابها
قمة تقتصر دونها كل مثوبة ، حيث جعل أجرها الجنة ، وسماها أفضل الجهاد
والناصح إذا قتل من أجل نصيحته فهو من سادة الشهداء يقول ﷺ :
« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (١) .

ويقول : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر
فأمره ونهاه فقتله » (٢) .

وقد يستشكل بهذا الحديث على الشرط الثانى للنصيحة ، لأن القتل أعظم
جرماً من مجرد الظلم ، فكيف نزيل هذا الإشكال ؟

الحقيقة أن القتل أشد من الظلم ، إذا كان الظلم واقعاً من فرد عادى من
أفراد الأمة ، لأن ظلم الفرد العادى لا يتعدى اغتصاب حق إنسان ،
أو الاعتداء على حرمة من الحرمات ، فإذا كانت النصيحة حينئذ ستؤدى إلى
القتل ، فعدم أدائها أولى .

أما ظلم الحكام ، واعتداء الإمام فإنه هلاك للأمة بأسرها ، وانحراف عن
جادة الحق التى ما قامت الدولة الإسلامية إلا لشيئها ، كما أن فيه إذلالاً

(١) رواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه الحاكم .

للشعب ، وتحطيماً لمعنوياته ، وفي ذلك ضياع الأمة وتعريض لها لخطر الغزو من أعدائها .

والسكوت على ظلم الإمام تشجيع له على التمدادى فى الباطل ، ويهون عليه تعطيل الشريعة ، حتى ينتهى الأمر بإزالة معالم الدولة الإسلامية .

وليس المقصود بظلم الحاكم ، ما يقع منه من ظلم على أفراد الرعية فإن الحاكم غالباً عنده ما يغنيه عن الاعتداء على حقوق رعيته وإنما المقصود انحرافهم عن الدين ، ومجاهرتهم بعداوتهم ، وتفضيل النظم المستوردة على نظمه من حيث التشريعات والسياسة والاقتصاد والأحوال الاجتماعية والأوضاع العسكرية إلى غير ذلك من النظم التى جاء بها الإسلام .

فإذا حصل من الحكام ذلك تحتم الوقوف فى وجوههم لإنقاذ الأمة من هذا الهلاك المحقق ، والتضحية بالنفس لنصرة الدين وتثبيت قواعده أمر مقرر فى الشريعة ، ولهذا أخبر ﷺ أن الرجل الذى يقف فى وجه السلطان الجائر ليرده عن جورهم ويحمى الدين من شره ، إذا قتله الإمام لذلك ، كان سيد الشهداء .

ولقد أدت الرعية هذا الحق للإمام فى عهد رسول الله ﷺ وفى عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، واستمر الأمر على ذلك حتى فسد الناس ، وساءروا الظالمين ، وخافوا الحكام ، ولم يخافوا الله فسكتوا على الظلم ، وبخلوا بالنصح ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، ونسوا موقفهم بين يدى الله وتناسوا سؤاله سبحانه عن علمهم ماذا عملوا فيه ؟ .

وكان الخلفاء يشجعون الناس على قول الحق بقبله منهم ، حتى قال قائلهم : « لا خير فيكم إذا لم تقولوها — كلمة الحق — ولا خير فينا إذا لم نسمعها » وفى الحديث الشريف « إذا هابت أمتى أن تقول للظالم يا ظالم ، فقد تودع منهم ، وباطن الأرض خير لهم من ظاهرها » .

علم المسلمون أن النصيحة حق من حقوق القيادة فبذلوا تسديداً للحكام ، وإحقاقاً للحق ، وإنصافاً للناس ، ورفعاً للخرج عن أنفسهم ، وأخذوا بيد الأئمة إلى مثالية رفيعة ، عزها نظير في تاريخ الحكومات قبل الإسلام .

وفتحت القيادة صدرها للمجنود ليبدوا في سياسة الدولة ، ويشاركوا في توجيهها ، ويتحملوا نصيبهم من تبعاتها ، ولم لا ؟ وكل واحد منهم مرشح لأن يكون خليفة في دولة بنت سياستها على أن الأكفأ — ولو كان من الأدنى — هو الأجدر بقيادتها ، وتسيير دفتها ، وفي هذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته » .



أمثلة عملية

من عهد الرسول :

في غزوة بدر نزل رسول الله ﷺ أدنى ماء من مياه بدر ، ونظر الحباب ابن المنذر ، فوجد المكان غير مناسب ورأى أن المعركة تستلزم تخطيطاً غير ذلك ، فوقف في أدب الجندى أمام القائد وقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأق أدنى ماء من القوم ، فنزله ، ثم تقور ما ورائه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فتملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأى^(١) وانهض القائد بجنده ، وينزل حيث أشار الحباب رضى الله عنه .

لا شك أن الجندى إذا كتم هذه النصيحة ، وهو يعلم قيمتها يكون خائناً لقيادته ، لأنه قد يترتب على كتمانها من المفاسد ما يمكن أن تتجنبه لو فطنت لذلك ، ولا شك أن القيادة إذا رفضت تلك النصيحة بعدما تبين لها وجه الحق فيها ، والمصلحة التي تعود على المسلمين من اتباعها تكون مسئولة أمام الله عز وجل عن إهمال العمل بها مسئولة تعرضها للوم العنيف والوعيد الشديد ، وبالتالي تكون غير جديرة بقيادة أمة فيها أمثال هؤلاء الجنود ، ولكن الجندى أثبت إخلاصه بتقديم النصيح ، وأثبت القيادة جدارتها بقبوله .

وفي هذا الموقف الرائع آداب يجب استعراضها لتأسي بها في حياتنا ، ونستفيد منها في توجيه جنودنا .

أولاً : الشجاعة الأدبية التي يتحلى بها الجندى المسلم ، والتي روى

(١) سورة ابن هشام ١ م ص ٦٢٠ .

الإسلام جنوده عليها ، وهى صفة يتحلى بها الرجال فعلى من قدرهم وترفع من شأنهم ، وقد تجملت فى الحجاب فى هذا الموقف الجرىء .

ثانياً : التقيد بأمر الله تعالى بحيث لا يجوز مخالفته فى صغيرة ولا كبيرة ، « يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ، أمتزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ؟ » .

ثالثاً : بذل النصيحة للقيادة إذا كان هناك مجال للرأى « قال الرسول بل هو الرأى والحرب والمكيدة » عندئذ يقول الحجاب : « يا رسول الله ، هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم » .

رابعاً : احترام آراء الجند والاستماع إليهم ، وتنفيذ الصالح منها ، ويظهر ذلك فى احترام الرسول ﷺ لرأى الحجاب حيث قال : « لقد أشرت بالرأى » .

من عهد أبى بكر :

وفى أول يوم يتولى فيه أبو بكر رضى الله عنه أمر المسلمين ، يرسم سياسته ، ويعلمها فى خطبة على المنبر ، فيقول : « أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أربح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم (١) » .

وبهذه الكلمات القصيرة ذات اللمحات الكثيرة ، تفتح القيادة صدرها للجنود ، وتطلب منهم العون والتسديد ، وتؤهلهم لممارسة واجبهم فى بذل النصيح ، وتسديد القيادة ، ومساندة الحق .

(١) الصديق أبو بكر ص ٧٢ .

ومن عهد عمر :

ويأتى دور عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيتولى أمر المسلمين بعد أبى بكر رضى الله عنه ويخطب الناس فيقول : « اتقوا الله عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم » (١) .

وبين للناس أن عليهم الطاعة في المعروف ، وأنه مستعد ليتلقى منه النصح والتقويم فقال : « أيها الناس من رأى في اعوجاجاً فليقومه » فأجابه رجل منهم « والله لو علمنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » .

لم ينزعج عمر لما سمع ، ولم يطرش بالقائل المجترى ، ولم يفرض الرقابة على الأفواه ، ولكن عمر رضى الله عنه سر لذلك وعبر عن هذا السرور بقوله : « الحمد لله الذى جعل في عمر من لو رأى فيه اعوجاجاً قومته بسيفه » (٢) .

لم تكن تلك كلمة مجاملة ، ولم تكن كذلك لوناً من النفاق السياسى الذى يلجأ إليه الضعفاء من الحكام يخدعون به الشعوب ليستميلوا قلوبهم البلهاء ، بل كانت كلمة حق خرجت من قلب الخليفة لتستقر في قلوب رعيته ، وقد أثبتت الأحداث صدق هذا الخليفة فيما دعا الناس إليه ، فلم يتبرم بنصح ، ولم يضيق طول مدة خلافته بنقد .

هم يوماً بتحديد قيمة الصداق ، فعارضته امرأة من الحاضرين على ملأ من الناس ، وقالت : « إن الله عز وجل يعطينا بالقنطار ، وأنت تريد أن تحدد ذلك يا عمر » والمرأة تشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ عندئذ يرجع عمر إلى الحق ، ويقول : « كلهم أعلم منك حتى النساء يا عمر » .

ووقف يوماً يخطب فقال : « أيها الناس اسمعوا وأطيعوا فأجابه رجل ،

(١) عبقرية عمر ص ١٠٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٩ .

لا سمع اليوم ولا طاعة يا ابن الخطاب .

قال عمر : ولم ؟

قال الرجل : لأنك أعطيت كلا منا ثوباً ونرى عليك ثوبين .

قال عمر : يحبك عن ذلك عبد الله بن عمر .

فقام ابن عمر وقال : إن الثوب الثاني هو ثوبى ، وقد أعطيته أبى ليكمل به ثوبه ، حيث كان ثوب أبى قصيراً .

قال الرجل : أما الآن فقل ، نسمع ونطيع .

لم يضق صدر عمر بهذا النقد ، ولم يبطش بالناقد لأنه يعلم أن الرجل يمارس حقه في توجيه الحكام ، والأخذ بأيديهم إلى طريق الخير الذى يجعل المودة دائمة بينهم وبين شعوبهم ، ولأن عمر يحرص على أن الخليفة يجب أن يكون واحداً من المسلمين لا يتميز عليهم ، ولا يستأثر دونهم بشيء .

وكان عمر يرى أن الخليفة إذا ميز نفسه بشيء دون رعيته ولم يجد من يحاسبه ، ويذكره فإنه يستمرىء ذلك ، ويستفحل الأمر ، وتحدث الفتنة التى تفرق بين الحاكم وزعيته ، وذلك أول فساد يدب في المجتمع ، ويقوض العلاقات الودية بين الحاكم وبين المحكومين .

وهو أول خطوة في طريق الاستبداد ، وبسببه تسير الأمم نحو حكم دكتاتورى بغيض ، فتتكدب الطريق ، وتضل السبيل ، وتطيح في هوة سحيقة تفرق بين الحكام والمحكومين ، فلا يلتقيان بعدها أبداً .

إن عمر في نظر الأعرابى أخطأ الطريق ، فأحس بأنه مسئول عن تقويمه ، وإعادةه إليه ، فقدم له النصيحة ، وإنما عمر رجل من المسلمين كما علمهم غير مرة ، فبأى حق يأخذ ثوبين ، ويأخذ الناس ثوباً ثوباً ، نعم إن عمر أثقل المسلمين حملاً ، وأكثرهم تبعه ، ولكن ذلك لا يمنحه حق التميز عن رعيته ، لهذا رأى الأعرابى أن ينصحه بالعدول عن هذا الخطأ ، أو ليس هو القائل : « وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضار النصيحة ؟ » .

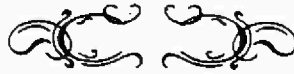
وجه الأعرابي النصيحة إلى عمر ، وقد جاءت في صورة جافة خشنة ، ولكن عمر لم يفضب منها ، لأنه خبير بطبائع البدو وعاداتهم ومعاملاتهم ، لذلك تلقاها بصدر رحب ، وبين له الحقيقة .

ولم يكذ الأعرابي يقف على حقيقة الأمر ، ويتبين له خطأ اعتقاده ، وظهرت له براءة الخليفة ، حتى بادر إلى السمع والطاعة « أما الآن فقل نسمع ونطيع » .

والله نسأل التوفيق والسداد والحمد لله رب العالمين .

وإلى اللقاء مع القسم الثاني

وهو الذى يبحث موضوع الجندية فى الإسلام



ثبت المراجع

اسم الكتاب اسم المؤلف

أولاً : القرآن الكريم :

ثانياً : كتب الحديث :

- البخارى — محمد بن إسماعيل البخارى .
- التاريخ الكبير — محمد بن إسماعيل البخارى .
- الترمذى — محمد بن عيسى الترمذى .
- أبو داود — سليمان بن الأشعث السجستانى .
- شعب الإيمان — أحمد بن الحسين البيهقى .
- فتح البارى — أحمد بن على العسقلانى .
- مسلم — مسلم بن الحجاج القشيرى .
- مختصر صحيح مسلم — عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى .
- المسند — أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى .
- مشكاة المصابيح — محمد بن عبد الله الخطيب .
- المطالب العالية — أحمد بن على العسقلانى .
- النسائى — أحمد بن شعيب النسائى .

ثالثاً : كتب التفسير :

- أنوار التنزيل — عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوى .
- جامع البيان — محمد بن جرير الطبرى .
- فتح القدير — محمد بن على الشوكانى .

رابعاً : كتب السيرة :

- حياة محمد — محمد حسين هيكل .
- السيرة النبوية — عبد الملك بن هشام المعافى .
- السيرة الحلبية — نور الدين بن برهان الحلبى .
- مختصر سيرة الرسول — عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب .

اسم الكتاب اسم المؤلف

المواهب اللدنية — أحمد بن محمد بن أبي بكر العسقلاني .
خامساً : كتب عامة :

- إتمام الوفاء — محمد الخضرى .
- الأخبار الطوال — أحمد بن داود الديثورى .
- الإرشاد — عبد الملك بن عبد الله الجوينى .
- الإسلام عقيدة وشريعة — محمود شلتوت .
- الأساطيل العربية — الدكتور إبراهيم العدوى .
- الإسلام وأوضاعنا السياسية — عبد القار عودة .
- تاريخ الإسلام — الدكتور حسن إبراهيم حسن .
- التربية الإسلامية — المؤلف .
- الحراج — لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم .
- الخلافة والإمامة — عبد الكريم الخطيب .
- الديمقراطية فى الإسلام — عباس محمود العقاد .
- رسالة الفروسية — محمد بن أبى بكر المشهور بابن القيم .
- سمط النجوم العوالى — عبد الملك بن حسين العصامى .
- السياسة الشرعية — أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية .
- الشورى فى الإسلام — الدكتور بابللى .
- الصدیق أبو بكر — محمد حسين هیکل .
- عبقريّة عمر — عباس محمود العقاد .
- العلم عند العرب — الیدومیلى .
- فجر الإسلام — أحمد أمين .
- الکامل — على بن محمد بن محمد الشهير بابن الأثير .
- مقدمة ابن خلدون — عبد الرحمن بن خلدون .
- مقومات الاقتصاد الإسلامى — عبد السميع المصرى .
- مطالب أولى النهى — مصطفى السیوطى الرحیانی .